Novel
رواية

A W A D A L I

عواد علي

نخلة الواشنطونيا

Novel
رواية
عواد علي
نخلة الواشنطونيا

فضاءات
للنشر والتوزيع

عواد علي

نخلة الواشنطونيا

رواية

الطبعة الثانية

١

قصدَ أستاذ اللغة الإسبانية، منتشياً بما ظفِر به، طبيب الأمراض التناسلية ليعرض عليه حالته الغريبة التي تحدث له كلما سمع انفجاراً، وباتت تؤرقه وتسبّب له حرجاً أينما كان خارج البيت.

فور انتهائه من محاضرته الوحيدة ذلك اليوم حول "المفارقة في رواية الدون كيخوته"، عرج إلى مكتبة الكلية، لا إرادياً، ليسأل أمينتها العانس هيام عن الكتاب الذي طالما منّى نفسه بقراءته منذ صدوره قبل سنتين، رغم أنه كان واثقاً من استحالة قدرة المكتبة على اقتناء أي كتاب من الخارج آنذاك.. كيف يتأتى لها ذلك في تلك الأيام العصيبة؟ يكفيها أنها نجت من حريق مدبّر في الأيام الأولى من الاحتلال.

كانت أمينة المكتبة تتودد إليه دائماً، وتصطفي كلماتٍ مهذبةً ورقيقةً في مخاطبته. وفي بعض الأحيان تتدفق بنوع من المشاعر التي تبدو غامضةً بالنسبة له، فيردّ عليها بعبارات مجاملة يمكن أن تقال لأي امرأة يسمح المقام بمخاطبتها. لقد سألها عن ذلك الكتاب مراتٍ عديدةً، متجنباً أن يذكر لها أنه منشور في بوينس آيرس سنة ٢٠٠٤ كي لا يصدمها، إلاّ أنها في كل مرة كانت تنسى اسمه، وتطلب منه أن يتكرّم بتذكيرها، فيقول ببطء شديد، ماطّاً الحروف مطّاً: اسمه "يوميات القراءة: تأملات قارئ شغوف في عام من القراءة" لألبرتو مانغويل. لكن الأمر في هذه المرة كان مختلفاً، فما إن لمحته داخلاً حتى أسرعت إلى أحد الرفوف وسحبت منه كتاباً مجلداً وقدمته له، وقالت بفرح غامر:

– أخيراً أستاذ كمال.. آه لو تعرف كم أنا سعيدة.. والله كنت اليوم أنوي أن أجلبه لك...

– أين عثرتِ عليه؟

– لن تصدّق.. أهداه لنا لاجئ عاد من الأرجنتين قبل أسبوع.

– عاد من الأرجنتين؟ رجل مغامر..

– بعد ربع قرن، تصور!

– هل تعرفينه؟

– لا، يقول أخوه الطالب عندكم في القسم إنه غادر العراق عام ١٩٧٩.

– لابدّ أنه شيوعي.

– شيوعي، إسلامي، ليبرالي.. ما علينا، أنت ماذا ستهديني؟

قال كمال مازحاً:

– أهديكِ رأس المال.

سألت هيام باستغراب:

– أي رأس مال؟

– كتاب كارل ماركس.

– كتاب مقابل كتاب؟ ماذا أفعل به وأنا وسط غابة من الكتب؟

– ماذا تريدين إذن؟

– أريد هديةً تذكرني بك دائماً.

سار كمال على عجل ليصل إلى عيادة الطبيب في الموعد المحدد وهو يفكر بالأسلوب الذي سيعبّر به له عن حالته الغريبة، أيقول له بشكل مباشر إن عضوه ينتصب كلما سمع انفجاراً، أم يستخدم تعبيراً شبيهاً بالتعابير التي يستخدمها الأطباء، أم يوحي إليه بذلك إيحاءً؟

كانت العيادة تقع في شارع المغرب (الشارع نفسه الذي يقيم فيه)، فخاضت قدماه في الوحل حتى تسرب إلى حذائه. ثمة ضباب خفيف كان يغشى الجو، بعدما خفّ المطر، وعلى امتداد الفضاء كان يسمع زئيراً متواصلاً للريح يشعِره بالسأم. ما إن قطع السور العالي لمبنى كلية الفنون في الوزيرية، منكمشاً على نفسه من البرد، حتى فاجأه دوي انفجار هائل في الجهة الثانية من الشارع، فرمى نفسه على الأرض، ثم زحف بسرعة واحتمى بساق شجرة ضخمة. شعر كالعادة بانتصاب عضوه، وباحتقان عنقه بسبب ضغط بنطلون الكتان عليه. لم يستطع تمييز نوع الانفجار، هل كان عبوةً ناسفةً أو عجلةً مفخخةً؟ لكنه سمع أصوات استغاثة على مقربة من هيكل معدني يحترق. بعد قليل لمح سائلاً أحمر ينبجس من جسده ويختلط بالوحل، تلمس بكفه اليمنى رأسه وصدره وأطرافه، فأدرك أن شظايا الانفجار اخترقت معطفه المطري، وأصابت ذراعه وساقه. لم يشعر بألم، وفقد الإحساس بهما كما لو أنهما بُترتا عن جسده.

نقلته سيارة إسعاف إلى مستشفى حكومي، وعقب ساعتين على تلقيه العلاج دهم الردهة خمسة مسلحين ملثمين، وجروه من سريره إلى الحديقة الخلفية للمستشفى. أوقفوه مع بقية الجرحى في صف واحد، وأخذ زعيمهم يسألهم عن أسمائهم وأماكن سكناهم. كان عددهم يزيد على عشرين جريحاً، وخلال دقائق جرى تقسيمهم إلى صفين. أمر الزعيم جرحى الصف الأيمن بالعودة إلى ردهاتهم، وجرحى الصف الأيسر بالمكوث في أماكنهم، وكان كمال واحداً منهم، يسند نفسه بصعوبة إلى كتف جاره بسبب ألم ساقه، فأيقن أنه مقتول حتماً، واعتراه فزع شديد، وفقد توازنه وترنح ساقطاً على الأرض. أوعز الزعيم إلى أحد أفراد جماعته بأن يأتي به إليه. أمسكه هذا من شعره وأخذ يهز رأسه:

– جبان أيضاً؟ ما اسمك مرة أخرى؟

أجاب كمال بصوت مهشم متحشرج:

– كمال ترزي..

– وما معنى ترزي.. أهو اسم هندي؟

– معناه الخياط بالتركمانية.

– أنت تركماني إذن؟

– لا، أنا عربي، لكن جدي مولود في كركوك فأحبَّ اسم ترزي.

– جدك حمار. ألم يجد اسماً أفضل من هذا.. ماذا تشتغل؟

– أستاذ جامعي.

– خرا عليك.. قف جنب الحائط ريثما أنتهي من هؤلاء...

أشار الزعيم برأسه إلى اثنين من جماعته، فتقدما بضع خطواتٍ إلى الأمام وأطلقا وابلاً من الرصاص على الجرحى. تكومت جثثهم بعضها فوق بعض، وأضاء البرق سيل الدم الذي راح ينزف منها بغزارة على العشب، ثم أسرع الزعيم بدفع كمال أمامه إلى خارج المستشفى. كانت الريح قد ازدادت شراسةً وعويلاً، وانقشع الضباب عن الجو فاسحاً المجال للسماء بأن تسكب على المدينة رشقاتٍ من المطر كسهام عشوائية. أمام البوابة أخرج الزعيم من جيبه خرقة سوداء وعصب بها عيني كمال بإحكام، ثم انتزع هاتفه واقتاده إلى إحدى السيارتين اللتين كانتا بانتظارهم، وحشره في صندوقها الخلفي.

أمضى كمال أربعة أيام محجوزاً في قبو بيت قديم تفوح منه رائحة بعر الغنم وذرق الدجاج. لم يعرف موقع البيت بالضبط، لكنه خمّن أنه يقع في أطراف بغداد، فقد استغرقت السيارة وقتاً طويلاً في الذهاب والإياب. كان يتعرض كل يوم إلى أكثر من استجواب في القبو للتأكد من هويته المذهبية، ولم تخلُ بعض الاستجوابات من استخدام العنف ضده. وقبل أن يخلي المسلحون سبيله في اليوم الأخير وقّع على اعتراف طويل أملاه عليه زعيمهم بلغة ركيكة. وخلال ليالٍ عديدة تالية صار كمال هدفاً لرؤى كابوسية تعكّر صفو نومه، يستيقظ في الفجر صارخاً كالممسوس، وتظل عيناه مفتوحتين حتى الصباح.

عقب مضي أسبوعين على تلك الحادثة اتفق كمال على موعد جديد مع الطبيب ذاته، ذهب إليه مع جهاد البشير، وهو صديق مقرّب له من أصل فلسطيني، درس اللغة العبرية معه في كلية اللغات وأصبح مترجماً بارعاً. ومن باب المصادفة وقع انفجار قريب خلال اللحظة التي كان فيها ذلك الطبيب يقوم بفحصه سريرياً، فأخذ يقرع على عضوه بعنف، مستخدماً مقرعةً خشبيةً، خيّل إليه أنه سيهرسه. وبعد نصف ساعة أمره بأن يجري فحوصاتٍ مختبريةً وشعاعيةً. وحين اكتملت الفحوصات تبين أن سبب الانتصاب المفاجئ الذي يحدث له مسألة نفسية وليست عضوية، وعليه أن يراجع طبيباً متخصصاً في هذا الشأن. لكن كمال لم يأخذ النصيحة على محمل الجد، وقال لصديقه جهاد "بماذا سينفعني الطبيب النفسي؟ هل سيحول دون حدوث الانفجارات في البلد، أو سيأمر بإرسالي إلى سويسرا لقضاء حياتي فيها على نفقة الحكومة؟".

٢

ارتقى كمال درجات سلم البناية التي يقيم فيها بخطى وئيدة، كما يفعل دائماً، لئلاّ تسمع جارته راهبة زهرون وقع أقدامه، فتفتح باب شقتها، وتصفعه بموجز أنباء جاراته الأرامل ومجازر فرق الموت. هي تسكن في الطابق الأول، فوق دكانها، الذي أرغمها مسلحون، بعد الاحتلال، على تحويله من "صالون الزنبقة لتجميل السيدات" إلى "وكالة الكوثر للمواد التموينية"، وهو يسكن في الطابق الثاني، حيث تطل شقته على شارع المغرب، وفوقه مباشرةً تقيم السيدة فيفيان.

كان الوقت قبيل غروب الشمس بقليل، ورغم ذلك فإن انقطاع التيار الكهربائي قد أشاع بعض العتمة وطمس لون الأشياء داخل البناية. لكن حذره لم يجدِ نفعاً، فما إن بلغ منعطف السلّم حتى سمع خلفه صرير باب يُفتح، أعقبه صوت نسائي يرنّ: "حظك الحلو أخّرك اليوم. انفجرت مفخخة وحطمت كل زجاج المنطقة.. تمهّل وأنت تدخل الشقة". تذكّر على الفور مكتبته الزجاجية فشعر كما لو أن أحدهم ضرب مؤخرة رأسه بهراوة. وفيما كان يدير مفتاح الباب نزل من الدرج رجل ملتح ذو قسمات خشنة، وشارب أشعث مدبب إلى الأمام، مطلي بالحناء، يبدو فوق لحيته البيضاء أشبه بحيوان القريدس، وكان يحمل مصباحاً يدوياً ينبعث منه ضوء فسفوري أصفر. استدار إليه كمال دون أن ينبس بكلمة، ثم دلف إلى الشقة، وقبل أن يغلق الباب وراءه سأله الرجل بصوت غليظ:

– هل وجدوا جثته؟

– جثة من؟

– الانتحاري الكلب..

– لا أدري، لم أكن هنا حينما وقع الانفجار.

أشعل بضع شموع كان يحتفظ بها في خزانة المطبخ، ونفض الشظايا عن الكتب المبعثرة أسفل النافذة وحملها إلى غرفة النوم. كوّم بعضها في إحدى الزوايا، ودسّ الباقي تحت السرير. أما مخطوطة مذكراته، التي تناثرت أوراقها على الأرض مع الأقلام وبعض التحفيات الصغيرة

وقطع الزجاج المهشمّة، فجمعها ووضعها على الطاولة. نسي أن يرقّمها وهو يسترسل في الكتابة، لذا لم يستطع ترتيبها حسب تسلسلها. وجد معها، أيضاً، مجموعة صور تجمعه بنسرين وبعض صديقاته الإسبانيات: فيسنتي ويرما وفيرونيك وكرستينا. "لكن من انتزعها من ألبومها، من دون غيرها، وتعمّد إخفاءها بين الكتب؟"، تساءل مع نفسه. لم يدخل شقته مذ فارقته نسرين سوى فيفيان، وهي ليست امرأةً متطفلةً، كما يعرف، تأتي مرةً في الأسبوع لتعدّ له طبخةً بسيطةً حسب مزاجها، وتجلب معها أحياناً ربع زجاجة عرق مما تبقى في دكان زوجها، الذي اغتالته جماعة تكفيرية لأنه يبيع الكحول، فتحتسي منها كأساً وتسقيه الكأس الثانية، ثم تغادره دامعة العينين بخفة فراشة رغم بلوغها الخامسة والخمسين. "إذن لا أحد غيره"، فكّر، إنه غضبان ابن راهبة، الذي أبلى كتاب ابن المعتز من كثرة ما استعاره لينقل منه تقارير مدرسيةً عن الشعراء القدامى.

المصادفة وحدها أنقذته..

انتهى كمال من محاضرته الأخيرة في الكليّة الساعة الواحدة بعد ظهر ذلك اليوم، وقبل أن يغادر قاعة الدرس استوقفته طالبته المحجبة زهراء، وسألته عما إذا كان باستطاعته لقاء والدها لأمر مهم. قالت له إن سائقها سيأتي من الجادرية بعد ربع ساعة وينتظرها عند مدخل الجامعة برفقة حارس مسلّح. ولأن كمال كان يعرف أن والدها مسؤول رفيع في أحد الأحزاب الدينية الحاكمة، فقد انتابه قلق شديد، لا بل كان أقرب إلى الرعب منه إلى القلق. لاحظت الطالبة ارتباك أستاذها فطمأنته قائلةً إنه يريد منه فقط معلوماتٍ عن الحياة في مدريد، "الحياة في مدريد! ما شأن رجل مثله بهذه المدينة..؟" تساءل بصمت ومضى معها صوب البوابة.

حكت زهراء لكمال، وهما ينتظران تحت شجرة ظليلة ذات تاج مورق، بعض التفاصيل عن أسرتها، التي لم يكن يعرف عنها شيئاً سوى أنها من أصول كربلائية، وأن الوالد احتل موقعاً قيادياً في حزبه بسرعة البرق بسبب صلة القربى التي تربطه بزعيم الحزب. أخبرته أن منزل أسرتها قصر ذو طابقين، الأول يشغله والدها وزوجته الثانية، التي تزوجها بعد عودته من الخارج، وهي في عمر أكبر بقليل من عمرها، والطابق الثاني تشغله الأسرة المؤلفة من الأم

والأخوين والأخوات الثلاث. لكن كمال ظل شارد الذهن، لم يكن يعنيه أن يسمع شيئاً عن حياة السياسيين المعممين من أمثال والدها.

جلس إلى جانبها في المقعد الخلفي لسيارة المرسيدس السوداء، فلفحه هواء المكيف المنعش، وشعر خلال لحظات كما لو أنه غطس في ماء بارد. ورغم ذلك ظل في داخله مزيج من الخوف والتوتر.

استغرق الوصول من الكلية في الباب المعظم إلى حي الجادرية وقتاً طويلاً. كانت المرة الأخيرة التي رأى فيها كمال ذلك الحي الراقي قبل عشر سنين، حينما ذهب إلى رئاسة الجامعة هناك لإتمام أمر تعيينه. لكنه يعرف جيداً أنه الحي المحبب لسكن الوزراء ومسؤولي الدولة الكبار، وفيه شوارع عريضة متقاطعة تنتشر فيها الأشجار وبعض بساتين النخيل، ويحتضن أكبر قصور بغداد.

كانت الشوارع ملأى بالحواجز ونقاط التفتيش والدوريات لحماية العاصمة، إثر تلقي الحكومة معلومات استخبارية تؤكد أن المجموعات المسلحة كُسرت شوكتها في الضواحي، فنقلت عملياتها إلى وسط بغداد. في كل كيلو متر كانت توجد نقطة تفتيش للشرطة، ولذا بدلاً من أن تقطع السيارة المسافة بنصف ساعة قطعتها بنحو ساعة ونصف الساعة، سالكةً شارع الكرادة داخل، الذي لم تطأه قدما كمال منذ بدء الاحتلال.

كان يرغب في رؤية "نصب الناجين" في ساحة الفردوس، فأتيحت له الفرصة حينما تأخر مرور السيارة من هناك. وجد النصب، كما سمع وقرأ عنه، مطلياً باللون الزيتوني، يمثّل أسرةً مكونةً من أب وأم وطفل، غابت عنها الملامح، ترفع رمزين هما الهلال الإسلامي والشمس السومرية. ولم يستغرب انتشار عجلات عسكرية أميركية ودوريات شرطة بكثافة حول محيط الساحة، التي أخذ بعض الناس يسميها بـ "ساحة الحرية".

حين انطلقت السيارة تخلت زهراء عن حشمتها المصطنعة، التي كانت تتمسك بها داخل الكلية، وكأنها تستبطن شيئاً وتتظاهر بشيء آخر، وأخذت تتودد إلى كمال بأسلوب فتاة شبه متحررة. في البدء أصغى إليها على مضض، ثم راح يتطلع بين حين وآخر إلى طابور السيارات خشيةً من أن تكون إحداها مفخخةً فتنفجر قرب نقطة تفتيش.

استقبل الرجل كمال في القصر على انفراد، ولكن بعد مرور نصف ساعة على وصوله. في البداية أدخله شاب ملتحٍ قوي العضلات، مسلح ببندقية أميركية "جي. سي" نصف أخمص، ومسدس كلوك أسترالي، إلى صالة فسيحة ذات أثاث فاخر، تغطي بلاطها سجادات كاشان، وتضيء سقفها ثريات كبيرة من الكريستال المطلي بالذهب، وستائرها المخملية تنساب بطراوة كأنها ستائر مسرح، فقدّر أن مساحتها تعادل المساحة الكاملة لشقته. وحدس أن البوفيه الخشبية ذات الزخارف البديعة، المركونة خلف طاولة الطعام الكبيرة في الصالة، والمزججة بزجاج بني شديد القتامة يحجب عما في داخلها، تخفي شيئاً ما، بالتأكيد ليس صحوناً ولا أقداحاً ولا فضيّات ولا خزفيّات، وإلاّ لماذا كل هذا التستّر على محتوياتها؟ كما خمّن أن قصراً بهذه الفخامة لم يكن ليمتلكه رجل عاش معارضاً خارج البلد. إذن لا بدّ أن يكون لأحد المسؤولين السابقين، فاستولى عليه هذا وضمّه إلى ممتلكاته. "من يدري.. ربما قُتل ذلك المسؤول السابق، أو فرّ، مع من فرّوا بعد الاحتلال".

كان على كمال الانتظار حتى يفيق الرجل من قيلولته، كما أخبره الشاب الملتحي، فهو معتاد على النوم بعد الظهر ساعةً أو أكثر ليروّح عن نفسه عناء اجتماعات اللجان الحكومية والحزبية الكثيرة التي يشغل عضويتها. معدته الفارغة، معدة كمال لا الرجل، أوحت له أن طالبته لن تدعه يخرج من دون أن يتغذى معهم، لكن زهراء اكتفت عقب عشر دقائق بسؤاله إن كان يرغب في الشاي أو العصير، فاختار الثاني على مضض.

حين دخل كمال إلى الصالة، إثر وصوله مباشرةً، سارع الشاب الملتحي إلى تشغيل التلفزيون ذي الشاشة المسطحة (البلازما)، وثبته على قناة دينية، وكأن ذلك جزء من واجبه. كانت القناة تعرض برنامجاً وعظياً كئيباً فانتابه الملل، وأشاح بوجهه عنه، وفكّر في قراءة كتاب يحمله في حقيبته، إلاّ أنه عدل عن الفكرة، ونهض ليتطلع إلى اللوحات والصور الموزعة على جدران الصالة. كلها ذات طابع ديني، باستثناء صورة زعيم الحزب الذي ينتسب إليه الرجل.

– هل أعجبتك الصور؟

باغته الرجل، وهو يدلف من الباب الداخلي للصالة، وأضاف بعد أن صافحه ودعاه إلى الجلوس:

– أغلبها من الخارج.

– ألا يجيدون عندنا رسمها؟

– هناك يتفننون فيها أكثر من جماعتنا.

صمت كمال، فقال الرجل:

– قالت زهراء إنك من شهربان.

– نعم.

– هل أنت من جماعتنا أم ...؟

لم يُفاجَأ كمال بالصفعة لأنه كان يتوقعها، وقد فكّر فيها منذ أمد، فانتهى إلى أنه كي يحافظ على حياته لا مفر من أن يساير الحالة الجنونية التي وصل إليها البلد، فيتظاهر أمام أي شرذمة تقطع طريقه، أو تدهم بيته بأنه ينتمي إليها. وجد أن لقاءه بهذا الرجل المتنفذ، رغم أن وجهه يحمل مسحةً من الشؤم، فرصةً ذهبيةً ليحصل منه على شهادةٍ أو توصيةٍ مذيلةٍ بتوقيعه تنقذ رأسه في ساعة المحنة، ساعة وقوعه في قبضة سفاحين لا يفرقون بين الإنسان والحشرة. أجاب كمال بما يطمئِن الرجل، وأضاف:

– لكني لست متديناً.

فقال الرجل:

– علماني.. لا ضير.

وطفق يسأل كمال عشرات الأسئلة حول العاصمة الإسبانية والعراقيين المقيمين فيها. ورغم أنه لم يفصح عن سبب حاجته لتلك المعلومات فقد رأى كمال أنه يهيئ نفسه لأن يكون سفيراً فيها! وقبل أن يغادره مع بدء هبوط الشمس إلى مهجعها انتزع منه ورقةً ممهورةً بتوقيعه، ودسها في جيبه بغبطة كمن يدس جوهرةً ثمينةً.

أملى كمال على السائق، ذي اللحية الشبيهة بلحية فلاح صيني، عنوان بيته والطريق الآمن الذي عليه أن يسلكه، ولما ابتعدت السيارة عن حي الجادرية مدّ يده إلى جيبه وأخرج الورقة. قرأها أكثر من مرة ثم خبأها في حقيبته، وتذكّر الموقف المرعب الذي عاشه في الشتاء الماضي، وتمنى لو كان يحمل ما يشبه هذه الورقة.

حين جازت السيارة تقاطع الباب المعظم، متجهةً إلى شارع المغرب في حي الكسرة، تنبه كمال إلى أنه ارتكب حماقةً تفوق الوصف. كان يُستحسن ألاّ يعرف السائق، وكذلك الرجل المسلّح الجالس إلى جانبه، المكان الذي يقيم فيه. ومن باب الحرص على نفسه أيضاً فكّر في عواقب وصوله بسيارة مرسيدس مظللة إلى بيته في الحي النابض بالحركة. طلب من السائق، حينما اقترب إلى جسر سكة حديد الصرّافية، أن يغيّر اتجاهه، ويسلك الشارع المؤدي إلى الجامعة المستنصرية، فبصق السائق من النافذة وانعطف إلى اليمين، وسأله بامتعاض:

– أستاذ كمال! ألم تقل إنك ذاهب إلى شارع المغرب؟

– كنت أنوي عيادة صديق في مستشفى الخيال، لكني غيرت رأيي.

هزّ السائق رأسه مدمدماً بكلمات غاضبة، وقاد سيارته بسرعة أعلى من سرعتها السابقة، وشرع يسترق نظراتٍ متوجسةً إلى السدة الترابية المحاذية لـ "مقبرة الانجليز" كمن يهجس وجود كمين مسلّح يربض على السكة. وما إن قطع مسافة مائتي متر، أو أكثر، حتى استوقفته دورية عسكرية أميركية، كانت تقيم طوقاً على عجلة محترقة، وأمرته بأن ينعطف إلى شارع يخترق حي الوزيرية، تظلله أشجار يوكالبتوس وكازورينا ضخمة تحرك الريح الخفيفة أغصانها بصعوبة. كان ذلك الشارع، ذو البيوت الأرستقراطية العتيقة، هو بالضبط الشارع الذي قرر كمال، قبل دقائق، أن يسلكه سيراً على قدميه كي يوهم السائق وزميله المسلّح بأنه يقيم في أحد بيوته.

تنفس بعمق روائح زهور الياسمين والرازقي المنبعثة من الحدائق المنزلية، فشعر بقليل من الانتعاش، ومضى صوب الكسرة، سالكاً، بحذر شديد، شارعاً فرعياً مغلقاً بكتل كونكريتية، عدا ممر واحد للمشاة تراقبه بدقة منظومة حماية شرسة لإحدى السفارات. أثارت حقيبة السمسونايت التي يحملها انتباه الحرس فسأله أحدهم، بأسلوب فض، عن وجهته، قال له إنه ذاهب إلى قاعة "حوار" للفنون التشكيلية. لم يكن كمال قد فكّر فيها، لكنها طرأت على باله فجأةً. توقف برهةً عند بوابتها وألقى نظرةً إلى الداخل، رأى شاباً ينحني أمام فتاة جالسة على كرسي خيزران ويمسّد شعرها بيد، ويفرك شحمة أذنها باليد الثانية، فابتسم وتذكّر زيارته الأخيرة لهذه القاعة، برفقة صديقته نسرين.

لحقته راهبة إلى الشقة بعد نصف ساعة لتتفقد أحوالها، حسب ادعائها. وجَدَتها فرصةً مناسبةً لإعادة ما انقطع من وصل بينهما مذ سرقته منها نسرين. دهنت وجهها بمكياج خفيف، وعقدت شعرها من الخلف بشريط زهري يناسب لون ثوبها وحمرة شفتيها (تعرف أن كمال ينفر من الألوان الصارخة). قالت له إن السيارة انفجرت في الساعة الرابعة، وقبل ذلك بخمس دقائق كان ابنها في الشارع، ولولا الحي الأزلي الذي ألهمه بأن يذهب إلى بيت صديقه في الصليخ لصعدت روحه إلى "مشوني كشطا")*(. ثم كشفت عن الخدوش التي أصابت رقبتها وساقيها (تعمدت رفع ثوبها حتى سرّتها) بسبب انهيار المعلبات ومساحيق الغسيل والشموع من رفوفها وهي جالسة في صالونها (ترفض تسميته بوكالة أو دكان لأنها ترفض الاستسلام، ولو شعورياً في الأقل، إلى القوة الجائرة التي مسخته). لكن الإضاءة الخافتة في الشقة لم تسمح لكمال بأن يرى بوضوح الأضرار الخفيفة التي لحقت بجسدها الأربعيني الممتلئ، وحين لم تجدِ محاولتها تلك نفعاً، ولم تحرك فيه ساكناً قصفته بسلسلة من أخبار الوضع الأمني المتردي في شارع المغرب والأحياء المجاورة له.

لم يكترث كمال بتلك الأخبار، فترك راهبة تدمدم بها وسار إلى النافذة. لفحت منخاره رائحة خشب محترق، وتناهت إليه ضجة آليات عسكرية قادمة من جهة قاعة الرباط، وسمع صوت انفجار بعيد، خمّن أنه صاروخ استهدف موقعاً حكومياً، ربما في المنطقة الخضراء، فامتلأت شراييه بالدم. ناداه هاجس في داخله بأن يأخذ راهبة إلى السرير، لكنه تذكّر أن صديقه جهاد البشير أسرّه مؤخراً برغبته في مصادقتها، وأنه لو فعلها سيكون لزاماً عليه أن يواصل علاقته بها، ولذا لم يرضخ لذلك الهاجس، وظلّ معطياً ظهره لها، وواصل تحديقه إلى الشارع، لاح له على غصن شجرة، بدا عليها الهزال من الظمأ، طائر صغير يتأرجح تحت غمامة رمادية. همّت راهبة بالخروج، وعرضت عليه، وهي تمسك بمزلاج الباب، استعدادها لمساعدته في تنظيف الشقة متى ما شاء، فأشار لها بإصبعه إشارةً غامضةً لم تفهم مغزاها، وهرع إلى غرفة النوم. لقد تذكّر فجأةً قطة نسرين فخفق قلبه. كيف شغلته الكتب عنها؟ أضاء مصباحاً يدوياً وفتش زوايا الغرفة،

)*(أرض العهد (الجنة)، التي يعيش عليها المختارون الصالحون، حسب الكتاب المقدس "گنزاربّا" للصابئة المندائيين.

وسطح خزانة الملابس، وأسفل السرير فلم يجدها. نادى عليها باسمها "ديلان" فلم تُصدر أي مواء كما كانت تفعل كلما ناداها. "هل ذعرت من الانفجار فقفزت من النافذة؟ الحيوانات الأليفة تستشعر الخطر أكثر من البشر". انتقل إلى الحمام، ثم إلى المطبخ، ألقى نظرةً إلى جوف الغسالة التي انزاح عنها غطاؤها، تفقد الأدراج والزوايا التي يخزن فيها الأواني والصحون والمؤونة، فلم يقع على أثر لها. وفجأةً سمع مواءً خافتاً، مختنقاً، نغمته لا تشبه مواء "ديلان"، لم يشعر بالإلفة معه، ويكاد يكون أقرب إلى استغاثة امرأة منه إلى قطة. رفع بصره ناحية الصوت فرأى ذيلها فقط، أما بدنها فكان مختبئاً داخل وعاء بلاستيكي فوق الثلاجة. أخرجها من الوعاء فوجدها ترتعش وعيناها غائمتان. تلمس بدنها فلم يجد فيه أية إصابة. احتضنها برفق وقبّلها من رأسها.

٣

توقف كمال عن الكتابة مذ تركته نسرين، بعد خمسة أعوام عاشتها معه من دون زواج. قالت له في أواخر السنة الثانية للاحتلال إنها عائدة إلى أربيل، لكنها لم تطق الحياة هناك، فغادرت إلى سوريا بعد شهرين، إثرَ تلقيها دعوةً من صديقتها عذراء، المقيمة في اللاذقية. اتصلت به يومها لتقول له إن موعد رحلتها بعد أسبوع، وإنها استدانت ثمن تذكرة الطائرة من أقربائها، وحثّته على الالتحاق إليها إن كان راغباً في مواصلة علاقته بها، وأغرته بأن الحياة في تلك المدينة السورية ذات الطبيعة الساحرة، التي تجمع البحر مع الجبل، وتتميز بساحلها الجميل وغاباتها الخضراء، أفضل ألف مرة من الكابوس الذي يعيشه في بغداد، إلاّ أنه لم يستجب لها، بل حاول أن يثنيها عن السفر، وإقناعها بأنها ستندم كثيراً لأنها ذاهبة للعيش هناك وليس للسياحة كي تتغنى بالبحر والغابات!

آثر كمال البقاء في بغداد رغم جحيمها، وربما غامر، لسببين، أولهما كي لا يفقد وظيفته في الجامعة، وثانيهما لئلا يعيش ذليلاً هناك. لكن ارتفاع موجة العنف الأهوج في الشوارع، و"تزايد العماء الأيديولوجي والطائفي" في الرؤوس، كما يصفه، عمّق شعوره بالقلق، وأرغمه على الاقتناع بعدم جدوى الكتابة، وخاصةً لكاتب مثله متعفف عن النشر، لم يقرأ مخطوطاته إلاّ نفر قليل من أصدقائه.

منذ أسابيع أخذ ينمو في داخله هاجس غامض، وصار يحرضه على استئناف الكتابة. نبت فجأةً بعدما أطل ذات صباح إلى الشارع من نافذة شقته، فذهله وجود نخلة ضخمة غريبة على الرصيف، تحمل سعفاتٍ مروحيةً داكنة الخضرة، وتتدلى أوراقها على شكل خيوط كبيرة، ولها ساق طويلة غليظة عند القاعدة ومنتفخة من الوسط، وثمارها كروية صغيرة سوداء.

– من الذي اقتلع نخلة الكناري وغرس محلها هذه النخلة البشعة؟

سأل الصيدليَّ، الذي كادت النخلة تغطي واجهة صيدليته، فأجابه:

– لا أدري، بالأمس لم تكن موجودةً.

– وهل تعرف أي نوع من النخيل هي؟

– اسمها نخلة الواشنطونيا.

استفزت النخلة بعض شبان الحي، فتطوّع أحدهم في اليوم التالي وسكب غالون نفط على ساقها وأضرم فيها النار، لكنها لم تحترق بالكامل، بل جزءاً منها، نصفها تقريباً. ورغم ذلك ظلت منتصبةً بخيلاء، تهز سعفاتها اللامعة، وكأنها تسخر ممن حاول إفناءها. حين رآها كمال على تلك الحالة قارن بين ضعفه المخجل وقدرتها على التحدي، وإصرارها على البقاء، وها هو انفجار السيارة المفخخة يدفعه إلى الارتماء في أحضان الهاجس الذي انتابه. سحب مخطوطة مذكراته من درج مكتبته الخشبية الجديدة، وأعاد قراءة ما كتبه قبل سبعة أشهر عدة مرات، لكن أسلوبه الجاف لم يعجبه. رمى الأوراق على الكرسي، وراح يفكر فيما يمكن أن يفعله بها. أخذ يذرع المكان بخطوات سريعة، شابكاً كفيه خلف ظهره، وفجأةً تذكّر الروائي الكاتالوني الفونسو غونزاليس، الذي أحرق خمس مخطوطات روائية قبل أن يدفع السادسة للنشر، وهي روايته التي شهرته "ثيران مدريد"، فاستقر رأيه على تمزيقها والبدء من جديد، فطفق يكتب بحماسة متزايدة، ومن دون تفكير:

"هبطت ماريدا الدرج المرمري المؤدي إلى قبو قصر الأناضولي بصحبة ثلاث نساء يرتدين تنورات قصيرة. أثار حضورها المفاجئ العاصف جميع المدعوين، نساءً ورجالاً، فاختفى لغطهم، ووضعوا كؤوسهم على طاولاتهم، وأداروا رؤوسهم صوبها بنظرات تضمر أحاسيس مفعمةً بالغيرة والدهشة واللهفة. كانت أكبر رفيقاتها سناً، في أول الأربعينات تقريباً، لكنها تفوقهن جمالاً وجاذبيةً. طويلة القامة، ترتدي فستاناً من الشانتون الأرجواني، مكشوف الصدر من دون حمالتَي كتف، يبرز نهديها، ويحيط به عند الخصر شريط تستقر عقدته فوق سرتها، وتتزين بعقد ناعم من المجوهرات، وتعتمر قبعة دانتيلا مزينةً بالورود.

كان مضيّفنا إحسان الأناضولي، يسير وراءها جذلاً، مزهواً بحضورها حفلة تلك الليلة، وما إن وطأت قدماها البلاط حتى أشار إلى الموسيقيين بالكفّ عن العزف، وقدّمها للحضور بحفاوة مبالغ فيها جداً، في حين تجاهل رفيقاتها تجاهلاً تاماً. أما هي فقد اكتفت بتحريك شفتيها بكلمات خافتة مع ابتسامة فاترة، ثم تبعت مضيّفها الذي قادها وحدها إلى المكان المخصص لها في

صدر القبو حيث كان يجلس مع رجلين وامرأة ذوي هيئة أرستقراطية قبل أن يخرج لاستقبالها عند باب القصر. واختارت النساء الثلاث أريكةً فارغةً على مقربة من البار الذي تقف خلفه ساقيتان آسيويتان محترفتان.

أَذِنَ الأناضولي، بإشارة من رأسه، للفرقة الموسيقية باستئناف عزفها، ثم رفع يده منادياً أحد الخادمين المتسمرين على جانبي الدرج مثل حرس ملكي، فهرع إليه، ووقف إلى يمينه محنياً ظهره، فأملى عليه الأناضولي طلب السيدة ماريدا. اتجه الخادم إلى البار وعاد بعد لحظات وهو يدفع عربةً مذهبة الأطراف عليها قناني من الكونياك والويسكي والنبيذ الأحمر والبيرة وبعض الأقداح الفاخرة وصحون من الفستق والكاجو والسلطة التركية والفرنسية، ووضع قنينة الكونياك أمام السيدة، وقدم النبيذ والبيرة لرفيقاتها.

ينتهي القبو بواجهة زجاجية على الضفة الشرقية لنهر دجلة، وتزيّن جدرانه زخارف ولوحات استشراقية لرسامين ألمان وفرنسيين، ورفوف ذات طراز كلاسيكي تتوزع عليها تحف نادرة، وشمعدانات من الفضة، وهو يتسع لأكثر من ثمانين شخصاً، لكن عدد الموجودين في الحفلة لم يكن يتجاوز الستين، نصفهم من النساء ونصفهم الآخر من الرجال، وتضفي عليه واجهته الزجاجية السميكة المحمية بحاجز حديدي متحرك امتداداً فريداً إلى الضفة الغربية للنهر حيث تتلألأ فوانيس القوارب الخشبية ومصابيح البيوت المطلة على الماء، وخاصةً حينما تضاء الكشافات الضوئية الزرقاء المثبتة على أعمدة في حديقة القصر الخلفية. إنه يشبه إلى حد كبير مطاعم مدينة طاراغونة الإسبانية على ساحل البحر المتوسط.

كانت ماريدا تجلس قبالتي تماماً، لا تفصلني عنها إلاّ بضعة أمتار، فتسنى لي أن أدقق في ملامحها وحركاتها وإيماءاتها، بل حتى طريقة تدخينها وشربها التي بدت لي أنها أميل إلى التصنع. وفي لحظة من اللحظات تخيلتها، وهي تدس شوكة السلطة في فمها، أنها كريستال، إحدى شخصيات أليخاندرو خوسيه في روايته "امرأة الضباب"، وأن ادّعاءها بأنها حفيدة ماريدا خاتون، زوجة هارون الرشيد، محض هراء. كنت قد سمعت بها قبل أربع سنوات، ولم تُتَح لي فرصة رؤيتها إلاّ تلك الليلة. حدثني عنها صديقي سلام الياسري، مدرس التاريخ والقاص الإيروتيكي، حينما كنا نثرثر، أنا وإياه وصديق ثالث اسمه جهاد البشير، في جلسة سكر حول

تداعيات طرد مفتشي الأسلحة، قال إنه أعطى دروساً خصوصيةً لابنتها التي تشكو من ضعفٍ في استيعاب تاريخ الدولة العباسية بسبب كثرة الخلفاء الذين تعاقبوا على الحكم، فنبهته ماريدا، وهي تصغي لحديثه عن زيجات هؤلاء الخلفاء، إلى أنه ذكر اسم زوجة تركية واحدة من زوجات الرشيد هي مراجل خاتون، ونسي الثانية ماريدا خاتون أم المعتصم، وادّعت أنها حفيدة تلك الخاتون، وقد تسمّت باسمها حين عثر أبوها على شجرة عائلته العباسية في اسطنبول. وأقسم صديقي الياسري أنه رأى تلك الشجرة بأم عينيه، وهي مرسومة على جلد غزال وممهورة بأختام قديمة، بل أن ماريدا طلبت منه مرةً أن يشيع أمرها بين كل معارفه، وكانت تنوي عرضها على الصحافة لولا اعتراض زوجها السابق فيصل شبيب، الذي كانت تضايقه بشدة رغبتها الجنونية في الانتساب إلى جدتها بدلاً من جدها، ومابرح اغتيال والده على يد رجل تركي ينغز في صدره. ويقال إنه طلقها لأنها ضربته على رأسه بعلبة سجائر خلال مشادة عنيفة جرت بينهما بسبب تفضيلها مطرباً تركياً على مطرب المقامات الشهير يوسف عمر. وقد عاشت ماريدا بعد طلاقها حياةً صعبةً مع ابنتها جُلدران استمرت أكثر من سنتين، رافقتها إشاعات وأقاويل كثيرة حول سلوكها، منها أنها كانت تمارس الدعارة لتوفر لقمة العيش، ومنها أنها كانت عشيقة أحد الوزراء، وقوادة لابن الرئيس في الوقت ذاته. ولم تستعد رفاهيتها إلاّ بعد وفاة طليقها في حادث غامض، وتورّث ابنتها ممتلكاته.

لا تربطني بإحسان الأناضولي أية صلة، فهو رجل أعمال كبير، واسع الثراء والعلاقات، تمتد أرصدته من روما إلى بانكوك، مروراً بأنقرة التي يقيم فيها أغلب أفراد أسرته. رجل في الخمسين، نال رضا الحكومة وبركاتها بسبب دوره في كسر الحصار الاقتصادي. وما زلتُ أذكر تصريحه لإحدى الصحف، عقب الضربات الصاروخية التي وجهتها أميركا إلى بغداد، بأنه سيرد على العدوان بجعل البيض يفقّس في شوارع العراق كلها، لكنه بدلاً من أن ينال ثناءً على ذلك وصله توبيخ غير مهذب من جهة عليا جداً تتحكم ببيع البيض في البلد. ومن يومها شطب البيض نهائياً من قائمة مستورداته. أما أنا فمدرس بسيط للغة الإسبانية في كلية اللغات، أتأبط "دون كيخوته" أينما ذهبت وحللت. اسمي كمال ترزي، ويلقبني أصدقائي بـ "سانتشو بانثا" رفيق ملحمته، بسبب إعجابي الشديد بشخصيته الواقعية، وتخصصي الأكاديمي "تأثير الثقافة العربية في أدب ثربانتس". جئت إلى حفلة الأناضولي تلك الليلة برفقة صديقي الياسري، الذي دعاني،

بالأحرى أنا من فرض نفسه على مرافقته، لحضور الحفلة حين أخبرني بأنه حصل على دعوة لشخصين عن طريق ابنة ماريدا، التي تطورت علاقته بها، بعد بلوغها، من علاقة مدرس خصوصي بتلميذة فاشلة في التاريخ إلى علاقة جنسية، رغم أنه يكبرها بخمسة عشر عاماً. كان يمنّي نفسه بأن تصحبه إلى الحفلة، لكن إصابتها بنزلة برد مفاجئة حالت دون ذلك. ربما لعب القدر لعبته فجعلني أحل محلها، أو أنه أشفق عليّ فحقق رغبتي في احتساء كؤوس متتالية من الشيفاز، الذي حرمت من تذوقه عشر سنين عجاف. قال لي صديقي الياسري ليلتها وهو يقرصني من فخذي "المشروب يا بانثا للمتعة وليس للانتحار"، فهمست في أذنه "هذا لو كنت أحتسي العرق مثلك يا دون كيخوته". وكنت أمازحه بهذا الاسم رغم أنه فارس نساء لا فارس مُثُل.

حرك الأناضولي سبابته في الهواء بحركة استعراضية، وهو يرفع رأسه باتجاه الفرقة الموسيقية، فتوقف المغني، فجأةً، عن أداء أغنيته الفلكلورية، واستدار إلى الموسيقيين، وبعد همسات متبادلة بينه وبينهم بدأوا يعزفون لحناً تركياً ذا إيقاع راقص، فخمّنت أنه أراد مداراة مزاج ماريدا، أو مراقصتها، لكن ماريدا سرعان ما أشارت إلى رفيقاتها بهزة خفيفة من رأسها، فتحررت النسوة، على الفور، من قمصانهن التي تغطي صدورهن العارية، وتقدمن إلى وسط القبو، وأخذن يرقصن رقصةً هجينةً، إلاّ أنها مثيرة، تختلط فيها حركات غجرية بأخرى غربية، ويضربن بأرجلهن على الأرض، أحياناً، ضرباتٍ غير متقنة كأنهن يقلّدن راقصات الفلامنكو. كانت إحداهن أكثر نحافةً وطولاً من الأخريين، لا يزيد عمرها عن الخامسة والعشرين (ذكرتني بفتاة سمراء من أليكانت اسمها فيرونيك، تعرفت إليها في مرقص مدريدي ذات ليلة شتائية باردة)، لكني عرفت، فيما بعد، أنها في التاسعة والعشرين، واسمها نسرين. جذبني إليها اهتزاز ثدييها ومرونة جسدها، فانتابتني رغبة عارمة في مراقصتها رقصة السالسا، لكني لم أجرؤ على النهوض. ولو لم تكن فيرونيك تفضل دائماً ارتداء البنطلون الجينز الضيق لتوهمت أنها هي التي ترقص في تلك اللحظة، وليس نسرين.

استمرت رفيقات ماريدا في أداء رقصتهن، من دون كلل، نحو ثلاثة أرباع الساعة، وظل المغني، بإشارات متواصلة من صاحب الحفلة، يجترّ الأغنية ذاتها عدة مرات، وكأنه لا يحفظ

أي أغنية تركية غيرها. كانت الأجزاء العارية من أجسادهن تعكس الضوء بوضوح، مثل رقائق القصدير، بسبب تعرقهن الغزير، لكن استغراقهن في الرقص، وربما رغبتهن في نيل مكرمة دسمة من الأناضولي، جعلهن لا يبالين حتى لو فاضت أجسادهن، وتحول القبو كله إلى بُركة. مررت من جانبهن، وأنا متجه إلى البار، فبدا لي أنهن يضعن عطراً من النوع الذي تزداد رائحته حدةً كلما امتزج بالعرق. أشارت ماريدا إليهن بالكف عن الرقص، فأطعنها مثل تلميذات صغيرات، وانسحبن بهدوء، وحملن حقائبهن اليدوية ودخلن إلى الحمام، مخلفات وراءهن تصفيق بعض النساء المنتشيات بعرضهن الراقص، وتمتمات عدد من الرجال بكلمات إطراء، وهم يرفعون كؤوسهم في الهواء، ورأيت أن الفرصة مواتية في تلك اللحظة للتعرف إلى نسرين، فبسبست في أذن الياسري، وبقيت أنتظر عودتها إلى مكانها، وهيأت في ذهني المدخل المناسب لاستمالتها".

٤

استلم كمال من نسرين، بعد وصولها إلى اللاذقية بفترة قصيرة، رسالةً إلكترونيةً قالت فيها:

"أكتب إليك من اللاذقية التي يشبّهها أهلها بعروس البحر المتوسط، وهي تتربع في قلبه بين القارات الثلاث. لم تُتَح لي فرصة اكتشاف أسرارها ومعالمها خلال أسبوعين، إلاّ أن الضرورة قادتني إلى بعض شوارعها، وشاهدت ما تبقى من آثارها التي محتها الزلازل والحروب الطاحنة، مثل: البوابة الرباعية، قوس النصر، أعمدة باخوس المشيدة من الغرانيت في شارع الروم، والمسرح الكبير الذي لا تظهر منه إلاّ أطراف متناثرة هنا وهناك.

هل تصدق يا كمال أن في المدينة حياً يطلقون عليه هنا "حي الأميركان"، وشارعاً اسمه "بغداد"؟

على أية حال ليس هذا ما أردت أن أطلعك عليه بل على تجربتي القاسية مع صديقتي عذراء التي استضافتني في بيتها. لقد فوجئت بأنها متزوجة من قواد سوري، وكان يخطط مسبقاً لاستغلالي. قال لي، بصراحة، بعد عدة أيام من وصولي، إن عليّ مشاركة عذراء في تحمل أعباء البيت، وليس أمامي سوى العمل، مثلها، في تسلية السياح الخليجيين الذين يزورون اللاذقية بحثاً عن المتعة. طلبت منهما أن يتحملا استضافتي بعض الوقت حتى أحصل على مساعدة مالية من أخي دلير، لكن هذا لم يحوّل لي فرنكاً واحداً، متعللاً بظروفه الصعبة. ثم رجوتهما أن يمهلاني عدة أيام لعلي أجد عملاً شريفاً.. ومضى أسبوعان وأنا أبحث، وأبحث من دون أن أجد ذلك العمل. كل الذين سألتهم قدموا لي عروضاً دنيئةً، أقلها أن أكون عشيقةً، أو أرتضي بزواج مؤقت.. وأخيراً استسلمت للمصير الذي رسمه لي زوج عذراء النذل.

صدّقني لقد لعنتُ الساعة التي تركتك فيها.. كانت أنانيةً مني أن أبحث عن ملاذٍ وأمن وهمي لي وحدي..

يا إلهي، لماذا تدفعنا المحن أحياناً إلى الركض وراء السراب، والتفكير في الخلاص الفردي؟

لا أدري. ربما لو تخطت علاقتك بي إطار الصداقة لما فارقتك. هل فكرت أنت في هذا الأمر؟ لا تجب عن السؤال الآن، كل ما أطلبه منك أن تقبل اعتذاري.

نسيت أن أخبرك بأمر مهم، علمت من عذراء أن ماريدا وجُلدران في أنقرة. حصل لهما الأناضولي على تأشيرة من السفارة التركية في دمشق قبل ثلاثة أشهر".

صُدم كمال بالرسالة وأخذ يلوم نفسه: "لماذا لم أرافقها؟ ألم يكن بإمكاني أن أسافر أنا وإياها بعد سنة أو سنتين على بدء الاحتلال؟ ما الذي كنت آمل منه أن يمنحنا؟ يا لي من أحمق.. لقد أضعت امرأةً أعدتُ تكوينها بيديّ مثلما أعاد هيجنز تكوين بائعة الزهور أليزا في مسرحية برناردشو".

كان كمال منهمكاً في تلك الفترة بامتحانات نهاية السنة، ولم يكن قادراً على السفر إلى اللاذقية لإنقاذ نسرين. وانضافت إلى هذا العذر حجة الخوف من مخاطر الطريق بين بغداد والحدود السورية، ففي كل يوم كان يسمع قصصاً عجيبةً عن حوادث قتل واختطاف وسلب يتعرض لها المسافرون.

في اليوم التالي فكّر في الذهاب إلى بيت سلام الياسري، الغارق مثله في معمعة الامتحانات، ليخبره بالرسالة، لكنه قرر أن يقصد دكان راهبة أولاً ليعرض عليها رغبة صديقه جهاد البشير في مصادقتها. وضع نظارته الشمسية على عينيه ليتفادى تأثير الغبار، الذي بدأ يكتسح بغداد منذ الصباح، وهبط إلى الشارع، فأدرك أن الغبار أسوأ مما تصور، يقبض النفس، ويحدّ من حركة الناس، وأنه لم يتزود بعدة كافية لمواجهته. وجد عند راهبة اثنتين من جاراته الأرامل، اللتين تشغلان الشقتين الأرضيتين في البناية. واحدة في الخمسين من عمرها، تغطي جسدها بعباءة كالحة، بشرتها قاتمة، متعبة، حفر الزمان عليها آثاره فبدت كأنها في الستين. والثانية شابة دون الثلاثين، لكن وجهها المصفر يميل إلى التعاسة، حاجباها لم يمسسهما الخيط منذ مدة طويلة، فنبت الشعر على حوافهما بكثافة، وفوقهما خصلات شعر خرنوبي، تبزغ على شكل أهلة من تحت حجابها، ترتدي تنورةً وقميصاً سوداوين باليين يضفيان عليها مزيداً من التعاسة. كانت راهبة تزود الأرملتين بحصتهما التموينية: الزيت، السكر، الشاي، الرز، الصابون، ومسحوق الغسيل. ألقى كمال التحية على النسوة الثلاث وظل واقفاً في الخارج، فردت عليه راهبة ببرود، من غير أن تتطلع إليه، وكأنه رجل غريب، في حين أجابته الأخريان بحرارة، ورمقته الأرملة

الشابة بنظرة خاطفة وابتسامة خفرة، إلاّ أنه لم يكترث لجفوة راهبة على الإطلاق، بل فسّرها بأنها نوع من التمثيل كي لا تثير انتباه جارتيها، ومكث ينتظرها حتى تفرغ من عملها.

أدار ظهره للنسوة وحدّق إلى نخلة الواشنطونيا. كان ساقها الضخم قد تعرّض في الأيام الأخيرة إلى رشقة رصاص خارق، وضربات فؤوس تركت فيها ثقوباً وأخاديد عميقةً أثّرت في نموها، وأحالت أزهارها العنقودية الطويلة ذات اللون الأبيض، التي تفتحت في أول الصيف، إلى ما يشبه القش. كانت الريح تهزها بعنف فتبدو كأنها طائرة مروحية تتأهب للإقلاع. قال كمال لنفسه "يا لها من شجرة مشؤومة، مذ غرسوها في الشارع انهالت الكوارث على حينا".

أنهت راهبة عملها في غضون خمس دقائق، فخرجت الجارتان تحملان مؤونتهما، وتابعهما كمال بنظراته حتى دلفتا إلى البناية، ثم دخل إلى الدكان فاستقبلته راهبة بفيض من البهجة التي تخالطها رغبة في الارتماء بين ذراعيه، وأرادت أن تغلق باب الدكان بحجة التخلص من الغبار، إلاّ أنه منعها قائلاً:

– راهبة ماذا تفعلين؟ هذا جنون.

أجابته:

– أليس من حقي أن أصاب بالجنون؟ لقد قوضت أحلامي وحفرت أنهاراً من المرارة في داخلي. ست سنوات وأنا عاجزة عن محوك من ذاكرتي. أتحمل عبء الأرق وانكسار القلب. أنتظر أن تملّ من نسرين وتعود إليّ، وفي النهاية هي التي هجرتك. ماذا ينقصني؟ ألستُ امرأةً من لحم ودم؟ هل بخلت عليك يوماً ما بلذة كنت تشتهيها؟ ألم أستجب لكل نزواتك؟ تحججتَ بأنك لا تريد الزواج مني لأنني أكبر منك فاقتنعت. قلتُ لك أبقى عشيقةً أو صديقةً أو ما شئت، لكنك سرعان ما تركتني وفضلت عليّ امرأةً أخرى. في البدء قلتَ إنها قريبتك، ثم ادعيت أنها خطيبتك، ثم علمت منها أنها صديقتك. وحرصاً مني عليك أشعتُ بين الجيران أنكما متزوجان زواج متعة. أتعرف لماذا فعلت ذلك؟

– أعرف.

– والآن؟ هل ستبحث عن امرأة أخرى لتعمق أنهار مرارتي؟

– اسمعي راهبة، سبق أن قلت لك إنني ما تخليت عنك إلاّ بسبب لسانك. ثرثرتك قاتلة، ولا تحفظين سرّاً، بينما أنا أحب المرأة الهادئة الكتوم. لم تتركي واحدةً من نساء البناية إلاّ وكشفت لها عن سيرة حياتي، وأشك في أنك لم تطلعيهن على علاقتك بي.

– وحق الحي الأزلي لم أفعل ذلك.

– حسناً، سأفترض أنك صادقة، لكن كيف يعرفن أنني عشت في إسبانيا؟ كلما سلّمت على واحدة منهن سألتني: لماذا تركت إسبانيا وعدت إلى هذا الجحيم؟ أيهما أحلى بغداد أم مدريد؟ هل صحيح أن الإسبان أصولهم عربية؟

– أنا آسفة، سأخيط فمي من الآن فصاعداً، هل يرضيك ذلك؟

– فات الأوان.

– لماذا؟

– قررت الزواج.

– مستحيل! تتظاهر بذلك لأقطع أملي.

– عندي فكرة. ما رأيكِ لو عرفتكِ إلى صديق يرغب في وصالك؟

تقلصت عضلات وجه راهبة فجأةً، وترقرقت في عينيها دمعتان:

– إلى هذه الدرجة صرت تبغضني؟ وا أسفي على هواك الذي ظل مشتعلاً في قلبي سنوات طويلةً. قل لصديقك إنني لست عاهرةً أو عملةً تتنقل من جيب إلى جيب، وليغفر الله لك هذه القسوة.

– أنا آسف راهبة. لم أقصد ذلك، دعيني أوضح لك الأمر.

رفعت راهبة يدها في الهواء لتوحي إليه بأنها لم تعد راغبةً في مواصلة كلامه معها، وقالت له وهي تشغل نفسها برفع كيس السكر من الأرض:

– كل شيء واضح. الله يسهّل أمرك.

ببطء شديد وإحساس طاغ بالندم خرج كمال من الدكان، وكأنه يجر خلفه كتلة حديد ثقيلةً. مرّ به كلب أبلق ضامر الجسم أثار الفزع في نفسه، فالتفت إليه لا شعورياً ليتأكد من أنه لن يهجم عليه من الخلف وينهشه، لكن الكلب مضى في سبيله وهو يتشمم الرصيف. وعند انعطافة

الشارع رفع رأسه عن الأرض وأخذ يبحلق إلى نخلة الواشنطونيا، هازاً ذيله بحركة سريعة، وبعد لحظات قصدها ورفع قائمته وبال على سياجها.

نظر كمال إلى الفضاء من حوله فوجده ما برح مكفهراً. خطر في باله أن يتصل بسلام هاتفياً بدلاً من الذهاب إليه. خطا عدة خطوات وأخرج هاتفه المحمول من جيبه وضغط على اسمه، لكنه ألفى محمول سلام مغلقاً. خمّن أنه أغلقه كعادته حينما يريد أخذ قيلولة، رنّ على هاتفه المنزلي فأبلغه صوت أنثوي رقيق بأن الخط مفصول. عندئذ قرر أن يذهب إلى بيته في العيواضية. سار من خلف ملعب الكشافة فواجهته بركة مياه آسنة تحيط بها أكوام نفايات اختلطت روائحها الكريهة برائحة الغبار الصحراوي. ثم عبر بصعوبة سوق الكسرة الداخلي، المليء بدكاكين البقالة والخضار ومصلحي المولدات وطوابير باعة الأرصفة والعربات والقصابين (اللحامين).

عندما وقف كمال أمام بيت سلام تذكّر أنه دخله آخر مرة في التاسع من نيسان ٢٠٠٣، يوم أعلنت أجهزة الإعلام عن سقوط بغداد، فاغتاظ من ذلك التعبير، وأسرع إلى سلام لينفّس عن غضبه:

– هل سمعت أولاد القحبة؟ يقولون إن بغداد سقطت. لماذا يختزلونها إلى تمثال؟

– هو اختزلها قبلهم.

ضغط على جرس الباب فلم يسمع رنينه، "الكهرباء مقطوعة أيضاً"، تلفت يميناً ويساراً كمن ينوي القيام بفعل مشين، ثم طرق الباب عدة طرقات قوية. انتظر بعض الوقت حتى يرد عليه أحد، لكنه لم يتلقَّ أي رد. ظن بأن أمراً ما حدث، وندت عنه تنهيدة جعلته يستنشق هواءً مشبعاً بالغبار كاد يخنقه، فسعل بقوة عدة مرات، وجرى إلى دكان على مقربة منه، واشترى زجاجة ماء نظّف بها بلعومه. سأل صاحب الدكان، وهو رجل مُسن تملأ وجهه لحية بيضاء مشذبة، إن كانت لديه أي معلومات عن سلام وأهله، فتردد الرجل، أول وهلة، وشغل نفسه مع زبون آخر، لكنه تكلم في الأخير:

– هل تقرب لهم؟

قال كمال:

– صديق حميم لسلام.

سأله الرجل:

– صديق حميم ولا تعرف...؟ إنا لله وإنا إليه راجعون.

انتزع كمال نظارته من عينيه:

– ماذا تقول؟!

– وجدوا جثته مقيَّدةً في مزبلة وعليها آثار تعذيب.

صُعق كمال، فصاح بصوت مرتفع:

– مستحيل! سلام لا علاقة له بأي طرف...

– اهدأ يا ابني.

– أهدأ؟ كيف؟ وأهله؟ ماذا حلّ بأمه وأخواته؟

– هجّروهم. لا أحد يعرف إلى أين.

– يا عالم، أي دينٍ وأي مذهبٍ وأي ربٍّ هذا الذي يخطفون ويعذبون ويهجّرون ويقتلون الناس باسمه؟

قاطعه الرجل متوسلاً:

– أرجوك يا ابني أخفض صوتك. إني أقدّر غضبك وانفعالك، ولكن لا حول ولا قوة إلاّ بالله. اذهب إلى بيتك وادعُ الله أن يرفع هذا البلاء عنا. هل تصلي؟

باغت سؤال الرجل كمال، فردّ عليه بجرس أقل حدةً:

– لا أصلي، لكني أخاف الله أكثر من المصلين الضالين.

– ادعُ الله أن يهديهم.

– يهديهم؟ بل قُل يخسف بهم الأرض. إن الله يهدي من يشاء لا من ينتهك عدالته، ويقيم حفلات للتعذيب والإعدام باسم عدالة الشارع؟

– إنه الخراب يا ابني. ألا تعلم أنه يعمي الأبصار ويستغلق الأذهان؟

– هل تعرف أين دفنوه؟

– في مقبرة العائلة، إلى جوار المرحوم والده.

كادت عينا كمال تدمعان، لكنه تماسك وصبّ ما تبقى من ماء الزجاجة في كفه، وشطف به وجهه، وقفل عائداً.

٥

تعود علاقة كمال بسلام إلى عشرين عاماً مضت. تعارفا في أحد معسكرات تدريب الطلبة على القتال، قبل انتهاء الحرب الأولى بسنتين. كانا يحتقران الحياة العسكرية بكل مفرداتها، ابتداءً من البسطار، ومروراً بلون البذلة الكاكي، وانتهاءً بساحة العرضات، لكنهما كانا يخشيان الجهر بذلك أمام أقرانهما. وزاد من درجة مقتهما لذلك المعسكر أن السُلطة ساقتهما إليه في أقسى أشهر السنة، أشهر الصيف اللاهبة التي "تصطل" حتى الحمير.

كان كمال في فصيل وسلام في فصيل آخر، إلاّ أن العقوبة العسكرية جمعته به مرةً، وكان معه جهاد البشير. حدث ذلك حين غابوا عن المعسكر ذات يوم عقب الاستراحة الأسبوعية التي تُمنح للمتدربين كل جمعة، فأمر الضابط بسجنهم أربعة أيام وحرمانهم من استراحة الأسبوع التالي. شاطرهم السجن اثنا عشر طالباً من كليات مختلفة، لكن كمال ارتاح لسلام وجهاد أكثر من البقية، شعر بأنهما أقرب إلى نفسه، إلى ميوله الفكرية وتطلعاته. ومنذ ذلك الوقت أصبحوا أصدقاءَ حميمين.

ظل كمال، بعد سفره إلى مدريد في منحة لإكمال دراسته العليا، على تواصل دائم مع سلام. كانا يتكاتبان مرةً أو مرتين في الشهر، وفي أول عطلة صيفية قضاها كمال في إسبانيا قام سلام بزيارته، ومكث معه خمسةً وأربعين يوماً. كانت تلك أول وآخر رحلة له إلى الخارج. إلاّ أنه اعتبرها رحلة العمر التي طهّرت روحه وجسده، وحررت مخيلته الأدبية أكثر من روايات مورافيا وماركيز ولورنس، التي كان مدمناً على قراءتها. بعدئذ، ولسنتين متتاليتين، صارت القصص التي يكتبها سلام تخرج من معطف تلك الرحلة أو من وحيها، حسب تعبيره هو. كان يقول لكمال، رداً على مطالبته المتكررة له بأن يكسر تلك القوقعة، وينهل من تجارب الحياة الأخرى، إنه يستمتع بها، ولم يستنفد بعد خزين جمالها وثرائها. وذات مرة أراد كمال إغاظته فكتب له، معلقاً على قصة أرسلها له بالبريد: "أنت يا صديقي لا تكتب بل تصبّ ماء القلب على جسد الورق، وتستحم

بنبيذ الشهوة. ستموت وأنت تحلم بنشر إحدى قصصك العارية"، فأجابه سلام: "خير لي أن أحلم من أن أكتب قصصاً ترتدي نقاب الحشمة".

كان سلام ينوي البقاء في إسبانيا، لولا موت والده الذي أرغمه على الرجوع، وقد رتّب الأمر مع أسرته، تاركاً لأخيه الأصغر مسؤولية رعايتها. وخمّن أن ذلك سيكون مبعث سرور لكمال، وربما سيحفزه على إلغاء فكرة العودة إلى بغداد بعد إنهاء دراسته، إلاّ أنه لم يطلعه على نيته قبل سفره، بل رغب في أن يفاجئه بها.

في اليوم الثاني لوصوله إلى مدريد لم ينتظر عودة كمال من الجامعة ليصطحبه في جولة داخل المدينة، بل قرر أن يخرج وحده، لكنه آثر أولاً أن يدون يومياً من يومياته التي اعتاد تدوينها منذ سنوات، فكتب واصفاً مشاعره وتداعياته خلال رحلته من بغداد إلى مدريد، ونسي، وهو في ذروة تلهفه لرؤية المدينة، أن يعيد دفتر اليوميات إلى حقيبته، تركه مفتوحاً على الطاولة، وارتدى ملابسه على عجل، وخرج منشرح النفس كما لو كان على موعد مع أجمل امرأة في الدنيا. وحين رجع كمال إلى البيت وقعت عيناه على الدفتر فدفعه فضوله إلى قراءة مدونة صديقه:

"لا أدري لماذا انتابني في بداية الرحلة شعور بأن الأمور لن تجري كما خططت لها. ربما كان ذلك بسبب اليوم المشؤوم الذي سافرت فيه، ذكرى الخامس من حزيران. نبضات قلبي تسارعت مع بدء إقلاع الطائرة، فأنا أول مرة في حياتي أسافر جواً، ودهمتني هواجس غريبة حينما بدأت المضيّفة تقدم إرشاداتها الإيمائية للمسافرين، ولم أتخلص منها إلى أن زال أمر ربط الأحزمة. بعد ذلك غرقت في متاهة الخيال. كنت أحدق من نافذة الطائرة إلى صحراء الغيم اللانهائية في السماء، وأرسم صوراً متضاربة للحياة الجديدة التي سأعيشها في مدريد. ولما خيّم الديجور خارج الطائرة أقنعت نفسي بأن "أجمل الأخبار من مدريد ما يأتي غداً". ورحت تحت وقع تأثير البيرة أردد في سري مقاطع أحفظها من قصيدة لوركا "برثيوسا والريح" في ديوانه "الأغاني الغجرية"، فحلّقت إلى الفتاة السمراء التي همت بها قبل سنة، غجريةً موثقةً إلى ارتجافة إيقاع لن يأتي أبداً، لها قلب من فضة، وشعر قرنفلي ينسدل كالشلال على ظهرها، اسمها غزالة، لكنها ليست من سلالة غجرية في الأصل.. ربما كانت لقيطةً.. أو خُطفت في ليلة ظلماء من

مهدها.. رأيتها مرةً واحدةً ترقص في حفلة خاصة أقامها جنرال في مزرعته لمناسبة انتهاء الحرب. طبعاً أنا لم أكن مدعواً إلى تلك الحفلة، بل ذهبت لمساعدة خالي، الذي يعمل متعهداً لتنظيم الحفلات. كانت الفتاة برفقة سبع راقصات وثلاث مغنيات، إحداهن تدّعي بأنها أمها، بيد أن غزالة لم تكن تشبهها على الإطلاق، ظبية لم تبلغ العشرين بعد، ذات هيئة خلاسية كأنها من بلاد الأنديز. حين كشفتُ لخالي، تلك الليلة، عن هيامي بالفتاة وعدني بأن يرتب لي لقاءً خاصاً معها مساء اليوم التالي، لكن ذلك لم يحدث أبداً، ولم تقع عيناي عليها بعدئذ، لأن جمالها الأخاذ أضرم نار الشهوة في دخيلة الجنرال، فاشتراها من أمها في نفس الليلة بمبلغ كبير، واتخذها جاريةً له".

في قرية "فونتي فاكيروس" الصغيرة بضواحي غرناطة، حيث يقع بيت لوركا، الذي تحوّل إلى متحف قبل ستة أعوام من ذلك التاريخ، لمح سلام، وهو يخرج من محطة الحافلات، برفقة كمال وصديقته فيسنتي، فتاةً تبيع الورد للزائرين تشبه غزالة، بل هي تبدو نسخةً منها تماماً، فأخذته الدهشة، وأمسك من كتف كمال، وهتف بصوت ينضح لهفةً، وهو يشير إليها:

– إنها هي!... أقسم بالله إنها غزالة.

أرسل كمال نظره إلى الجهة التي أشار إليها سلام، معتقداً أنه يقصد غزالةً حقيقيةً. وحين لم ير أثراً لها تساءل مستغرباً:

– أية غزالة؟ ما بك صُعقت؟

– غزالة يا أخي... البنت التي سرقها مني الجنرال.

ضحك كمال:

– ماذا جرى لعقلك؟ هذه بائعة زهور إسبانية.

لكن سلام أصرّ:

– والله هي بلحمها ودمها. أرجوك اذهب إليها واسألها عن اسمها.

– لماذا لا تأتي معي أنت؟

– سأموت إن رأيتها وجهاً لوجه.

كانت الفتاة تقف جنب سلة كبيرة محشوة بباقات الورد على مبعدة نحو خمسين متراً عنهم، ترتدي قميصاً أرجوانياً من دون أكمام، وتنورة طويلة فضفاضة بلون الكهرمان، وتعتمر قبعة قش تظلل وجهها، وخلفها واجهة مقهى زجاجية رُسمت عليها صورة للوركا، وعلى يسار الصورة كُتب بخط أنيق مقطع من قصيدة له يقول:

في البستان سألقى الموت،

سأكون قتيلاً قرب شجيرات الورد

كنت ماضياً، أمّاه لأجني الورود

وفي البستان لقيت الموت.

مشى كمال، مصطحباً فيسنتي، صوب الفتاة، وهو على يقين تام بأن ما يزعمه سلام ليس إلاّ ضرباً من الهلوسة، أو وهماً تلبسه على حين غرة. همس في أذن صديقته، التي لم تفهم شيئاً مما دار بينهما، بأن تتمهّل في اختيار باقة الورد ليتسنى له أن يكلم الفتاة. لكنه قبل أن يفتح فمه هرع إليهم من المقهى رجل أشيب يحمل قيثاراً، وشرع يعزف عليه، ويغني المقطع الشعري نفسه للوركا بصوت متعب ذي بحة حزينة. تأمل كمال بشرة الفتاة فهالته سمرتها العربية، وجمال عينيها الدعجاوين، وثغرها الصغير المطلي بلون يشبه لون قشرة الباذنجان. خطر في باله "جائز أنها من أصل أندلسي، أو قد يكون جدها مهاجر مغربي". ناولها من جيبه ورقةً نقديةً، وسألها إن كان المغني يقرب لها، فأجابته بإسبانية تشوبها لكنة واضحة:

– إنه بمثابة أبي، أعني هو الذي يرعاني.

شعر كمال بهاجس غامض:

– لكن لهجتك لا تدل على أنك إسبانية.

– ربما.

– هل تجيدين لغة أخرى؟

– أجيد العربية.

"لابد أن تكون مغربية إذن. ربما مات أبواها فتبناها عازف القيثارة هذا"، فكّر كمال، وسألها بلهجة عراقية عن اسمها، معتقداً أنها لن تفهم شيئاً من ألفاظه، إلاّ أنها باغتته قائلةً:

– اسمي غزالة.

كاد قلب كمال يقفز من صدره، "مستحيل!.. هذا لا يحدث إلاّ في الحلم أو في القصص الخيالية" قال لنفسه، والتفت إلى سلام ثم إلى الفتاة وقد أخذته الحيرة. انتهت فيسنتي من اختيار باقة الورد، وقدمتها لكمال كي يشمها، فأخذها من يدها، من دون أن يرفع بصره عن الفتاة، وبغتةً لمعت في رأسه فكرة أن يسأل عازف القيثارة عنها. تقدم إليه وهمس في أذنه أن يتوقف عن الغناء، ثم سحبه إلى جنب وقال له:

– هل هي ابنتك؟

أجابه عازف القيثارة:

– إنها ابنتي الوحيدة. لكن لمَ تسأل، هل أغضبتك؟

– بالعكس، إنها لطيفة جداً.

– إذن وقعت في غرامها؟ وهذه الفتاة التي ترافقك أليست صديقتك؟

– لست أنا مَن وقع في غرامها، بل صديقي الواقف هناك.

أشار كمال بيده إلى سلام، وأضاف:

– إنه من بلد بعيد ويعرف اسمها، وقد هام بها حين التقاها هناك قبل سنة، فهل تستطيع أن تفسر لي ذلك؟

اضطرب الرجل، وأخذ يرطن بكلمات غير مفهومة، ثم اندفع متعجلاً صوب الفتاة، وأمسكها من ذراعها، وأمرها أن ترفع السلة، فاستجابت له، وغادرا المكان متلاصقين وصامتين. قطعا مسافةً قصيرةً وانعطفا إلى أحد الأزقة، في حين ظل كمال واجماً يتابعهما بنظرات تملؤها الدهشة.

كان ذلك اليوم بالنسبة لسلام أقرب إلى الحلم منه إلى الحقيقة. حاول أن يحظى برؤية الغجرية مرةً ثانيةً، فعاود الذهاب وحده إلى قرية "فونتي" في اليوم التالي، وفي أيام أخرى، إلاّ أنه لم يجد أثراً لها. ظلت صورتها، بعد عودته إلى بغداد، محفورةً في ذهنه مدةً طويلةً، لكنها مع مرور السنوات أخذت تتلاشى شيئاً فشيئاً مثل الظلال في آخر النهار. وذات يوم بزغت فجأةً حينما تعرّف إلى فتاة ذات شبه بها اسمها جُلدران. كانت تعيش مع أمها في قصر صغير على مقربة من نهر دجلة. وكان كلما يختلي بها في غرفتها ليعطيها دروساً في التاريخ، تذكّره ملامح

وجهها بملامح تلك الغجرية، فيحتضن جسدها الطري، وينثر على ثغرها وصدغيها قبلات ساخنةً، ولا يتركها حتى يرتشف من أنوثتها...

شكّلت علاقة سلام بجُلدران، في ما بعد، حداً فاصلاً بينه وبين قصصه الإيروتيكية، فلم يعد يحفل بكتابتها. لقد عوضته الصبية عن حرمانه الجسدي، وغاص في هموم الكارثة التي حلت بالبلد، وأخذ يكتب قصصاً عن الجوع والحرمان والذل في سنوات الحصار، والموت والدم المستباح والاغتصاب في زمن الاحتلال. لكنه لم ينشر سوى واحدةً منها فقط في مجلة عربية.

حين وصل كمال إلى الشقة فتح ألبوم الصور وأخذ يقلب صفحاته فاستوقفته صورة يحتضن فيها نسرين وسلام وجهاد، التقطتها لهم جُلدران خلال احتفالهم بعيد ميلاد نسرين الحادي والثلاثين. انحدر خيطان من الدموع على خده فسحب الصورة من تحت غلافها وخطا صوب النافذة. تطلع بغضب إلى نخلة الواشنطونيا على الرصيف فوجدها غبراء، مكفهرةً، كسعلاة مصابة بوهن، وقد أحيطت بأسلاك شائكة يتجمهر حولها حشد من الأطفال المنهمكين برجم تاجها الأشعث بالحصى.

أعاد الصورة إلى مكانها وذهب إلى المطبخ. ألفى قطة نسرين متكورةً على نفسها، مغمضة العينين فوق الثلاجة، وحين شعرت بدخوله قفزت إلى طاولة الطعام، واشرأب عنقها وأخذت تموء. مسّد كمال رأسها بباطن يده عدة مرات فكفت عن المواء، وانقلبت على ظهرها رافعةً قدميها ويديها مطالبةً إياه بأن يواصل مداعبتها، لكن مزاجه لم يكن يسمح بذلك، فتركها وأدار كأساً مما تبقى في الزجاجة التي اشتراها من فيفيان.

ما لا يعلمه الراوي

ذات يوم شتائي، حين كنت في السنة الأخيرة من دراستي الثانوية، نزلت إلى قبو بيتنا في شهربان لأفتش عن شيء ما، لا أتذكره الآن، فلمحت في إحدى زواياه صندوقاً خشبياً صغيراً أبلاه القِدم، لم يسبق لي أن رأيته. التقطته على الفور وقلّبته بين يدي، فإذا به مقفل وحوافه مرصّعة بالنحاس. وقد بدا لي، بسبب تراكم الصدأ على القفل، أن مفتاحه ربما ضاع منذ سنين بعيدة. أثار الصندوق فضولاً شديداً في نفسي لمعرفة ما بداخله، لكني خشيت أن أكسره في البيت لئلا أوقظ أبي، الذي عاد من البستان قبل صلاة العصر وخلد إلى النوم. لففته بكيس من الخيش وحملت معه آلة كسر معدنية، وقصدت البستان مسرعاً من دون أن يراني أحد من أهلي. كان الجو يومها ماطراً، والطريق الترابي مغطى بالوحل.

عند مدخل البستان فوجئت بسيارة ابن عمي أكرم واقفةً، تريثت وتساءلت مع نفسي "متى جاء من الجبهة؟ وماذا يفعل هنا وهو على خلاف مع أهلي؟". تذكّرت أن أبي حذّره قبل بضعة أشهر من أن تطأ قدماه البستان. لم أعرف في البداية سبب القطيعة بينهما، لكني سمعت فيما بعد، من الفلاح هريدي الذي يعمل عندنا، أن أكرم كان يأتي إلى البستان، كلما حصل على إجازة من الجبهة، برفقة امرأة، ويمكث معها في الكوخ ساعةً أو أكثر، حينما يكون أبي في البيت..

مضيت إلى السيارة، متلمساً طريقي على مهل، والقيت نظرةً إلى داخلها، فلم أستطع أن أميّز شيئاً بسبب المطر الذي كان ينساب على زجاج النوافذ، ثم توغّلت إلى البستان متجهاً صوب الكوخ، بينما خشخشة الأشجار تنثر قطرات الماء على رأسي.

كان باب الكوخ مغلقاً، وثمة كوة في الجدار تسمح برؤية كل شيء في داخله. وقفتُ على مسافة قريبة منها، وطفقتُ أصغي، سمعتُ صوت لهاث أكرم يتصاعد مختلطاً بتأوهات امرأة، فبدأ قلبي يخفق بشدة، أول الأمر، ثم استيقظت فحولة نائمة بين فخذي. بعد دقائق تحول صوت المرأة إلى ما يشبه الأنين، كما لو أن حيواناً ضخماً جثم عليها، وراحت تتوسل إليه أن يرأف بها، وتقول له إنه يوجعها، والبرد ينفذ إلى عظامها، لكن أكرم لم يكترث بتوسلاتها، بل واصل لهاثه وكأنه يدفع صخرةً كبيرةً لا تتزحزح. اقتربتُ إلى

حافة الكوة، وحدّقت بطرف عيني إلى داخل الكوخ، فرأيت أكرم جاثياً على ركبتيه، وقد قوّس ظهره مثل هرٍّ مستوفز، وأحاط بطن المرأة بذراعيه، ضاغطاً على ردفيها بعنفوان، في حين انتصبت هي على قوائمها الأربع، وأحنت رأسها إلى الأرض تتلوى من الألم.

لحسن الحظ كانت الكوّة خلف ظهر أكرم مباشرةً، فأتيح لي أن أراقب المشهد من غير أن يراني، إلاّ أنه في الوقت نفسه حجب عني الأجزاء الأكثر إثارة في جسد المرأة اللحيمة. ورغم ذلك فقد اشرأب عضوي، واجتاحتني رغبة عارمة في الاستمناء. رميت الكيس على الأرض، وفتحت أزرار معطفي المطري، وتناولت طرف دشداشتي، ووضعته بين أسناني، وبدأت بالعملية وعيناي مشدودتان إلى المشهد. لكن أمراً غريباً حدث لي، ولم أجد له تفسيراً: دوت بغتةً انفجارات عنيفة على مقربة من البستان، من تلك الانفجارات التي كانت تحدثها القذائف الإيرانية خلال الحرب، وكنت لحظتها مندمجاً في العملية، بكل طاقاتي التخييلية والشبقية، وكأني أنا الذي أعاشر المرأة، فلم ينتبني أي شعور بالخوف، بل ألهب الدوي رغبتي الجنسية وعجّل في بلوغي الرعشة. وأية رعشة؟ أقسم إنها سرت في أوصالي مثل صعقة كهربائية، من شدتها. أما داخل الكوخ فقد ندّت عن المرأة صيحة مجروحة، وانبطحت على الأرض من الرعب، وفلت جسدها من قبضة أكرم، فصفعها على قفاها، ومدّ يديه تحت وركيها ورفع عجيزتها إليه، وقال لها موبّخاً: "جبانة. تخافين من انفجارات بعيدة. أنا في الجبهة أعيش على إيقاعها ليل نهار كي أحمي هذا الذي تبخلين به عليّ. تفو...".

حملت الكيس وابتعدت عن الكوخ على عجل. كان المطر قد توقف، وبدأ الغيم ينقشع عن السماء. درت حول سور البستان حتى وصلت إلى مكان بعيد عن الطريق الذي ستسلكه سيارة أكرم إذا ما خرج، وهناك أخرجت الصندوق وكسرت القفل، فوجدت بداخله مخطوطة كتاب ذات أوراق مصفرّة متآكلة الحواف، كُتب على غلافها بخط فارسي "ألواح حضرة بهاء الله". أثار العنوان استغرابي فتساءلت "من يكون بهاء الله؟"، ثم فتحت الصفحة الأولى فإذا بي أجد فيها بضعة أسطر تقول: "هذه الألواح، التي نشرها العالم الشّيخ فرج الله زكي الكردي، والعالم الشيخ أسد الله فاضل المازندراني، هي جزء من آخر ما فاض من قلم حضرة بهاء الله الدّائب الذي لا يكلّ. وهي تحتلّ مكانتها بين أينع ما أنتجته عقليّته من ثمار، وتشير إلى اكتمال مهمّته التي دامت أربعين عاماً". "أية مهمة"؟ تساءلت، وشرعت أتصفح الأوراق برفق كي لا تتمزق، حتى وصلت إلى صفحة تحمل عنوان: "الإشراقات"، وتحتها نص تقول بدايته:

"هَذِهِ صَحِيفَةُ اللهِ الْمُهَيْمِنِ الْقَيُّومِ هُوَ اللهُ تعَالَى شَأْنُهُ الحِكْمَةُ والْبَيَانُ. أَلْحَمدُ للهِ الَّذِي تَفَرَّدَ بِالعَظَمَةِ وَالقُدْرَةِ وَالْجَمَالِ. وَتَوحَّدَ بِالعِزَّةِ وَالقُوَّةِ وَالجَلاَلِ. وَتَقَدَّسَ عَنْ أَنْ يُدْرِكَهُ الخَيَالُ أَوْ يُذْكَرَ لَهُ نَظِيرٌ وَمِثَالٌ..".

تخطيتُ النص إلى صفحات أخرى لأجد عنوانين على الوزن ذاته، الأول "البشارات" والثاني "الطرازات". توقفت قليلاً عند العنوان الثاني ثم طويت المخطوطة، ظناً مني بأنها تضم نصوصاً صوفيةً على غرار نصوص المتصوفة، الذين قرأت بعض المعلومات عنهم في كتب المطالعة وتاريخ الأدب.

أعدتُ المخطوطة إلى الصندوق ورجعت قافلاً إلى البيت. في الطريق تناهبتني هواجس شتى وصور وظنون متشابكة، وحين وصلت تحولت تلك الهواجس إلى حيرة كبيرة، وتساؤلات لم أفلح في إيجاد إجابات قاطعة عنها: "لمن تعود هذه المخطوطة؟ أهي لأبي أم لجدي؟ تُرى لماذا وُضعت في صندوق مغلق؟ ولماذا أُخفي الصندوق في القبو؟ ماذا يعني الاحتفاظ بها؟ هل لها قيمة كبيرة بسبب قِدَمِها؟ إن كان محتواها لا يتعارض مع الدين فما الذي يستوجب إخفاءها؟ هل أسأل والدي عنها أم أنتظر حلول الليل لأكمل قراءتها بعيداً عن أعين أهلي، ثم أقرر ماذا أفعل؟".

اعتزلت في غرفتي بعد العشاء، وأخرجت المخطوطة، وفتحت فصلها الأول، ورحت أقرأه. وكلما مضيت في القراءة اختلط عليّ الأمر، وازدادت حيرتي، فإن كان صاحب المخطوطة متصوفاً لِمَ لم أسمع به من قبل؟ كنت قرأت عن متصوف اسمه ابن عربي، وآخر اسمه الحلاج، وآخر اسمه السهروردي، فمن يكون بهاء الله هذا؟ لكني ذُهلت فجأةً، وهتفت في داخلي "أخيراً أمسكت بمفتاح اللغز"، حين بلغت فقرةً يقول فيها: "هذِهِ آياتٌ أَنزَلناها مِن قَبلُ وأَرسَلناها إِلَيكَ لِتَعرِفَ ما نَطَقَت بِهِ الأَلسِنَةُ الكَذِبَةُ إِذ أَتى اللهُ بِقُدرَةٍ وَسُلطانٍ. قَد تَزَعزَعَ بُنيانُ الظُّنونِ وَانفَطَرَت سَماءُ الأَوهامِ وَالقَومُ فِي مِريَةٍ وَشِقَاقٍ". لقد أدركت تماماً أن المتكلم هنا ليس مؤلف المخطوطة، بل ذاتاً تقول، بصراحة، إنها الله. وتأكدتُ من صحة إدراكي، على وجه اليقين، لمّا قرأت بعد بضعة أسطر من الفقرة نفسها: "إِنَّا مَنَعناكُم عَنِ الفَسادِ والجِدالِ في كُتُبِي وَصُحُفِي وَزُبُرِي وأَلواحِي... ".

حدّقت إلى المخطوطة، وفكرت مع نفسي "معنى ذلك إذن أن صاحب المخطوطة يعدّ نفسه رسولاً مبشراً بدين جديد، ويعتبر الألواح كتاباً سماوياً منزّلاً من عندالله..". ورغم انني لم أكن متديناً حتى في ذلك العمر، فقد صعب عليّ تقبّل الأمر، واستحضرت المسلمات الدينية المغروسة في ذهني: "القرآن يقول إن

الإسلام آخر الأديان السماوية، ومحمداً خاتم الأنبياء، فكيف يُنزّل الله ديناً آخر، ويبعث رسولاً آخر؟ من غير المعقول أن يناقض نفسه!".

لم أنم ليلتها حتى أكملت قراءة المخطوطة كلها، فتبيّن لي أن صاحبها من أصل فارسي، وهو حديث العهد، وينادي بتحقيق نظام عالمي جديد ينصهر فيه الجنس البشري كله في وطن واحد، تسوده لغة واحدة، ويضمن لجميع أفراده، رجالاً ونساءً على حد سواء، العدل والرفاهية والاستقرار.

في اليوم التالي سألت مدرس الدين عمّن يكون بهاء الله، متظاهراً بأن اسمه مرّ عليّ بالمصادفة وأنا أطالع مجلةً، فجفل المدرس، ونظر إليّ نظرةً حادةً تنطوي على شك، وقال:

– هذا رجل فاسق ادّعى النبوة مثل مسيلمة الكذاب، وأحذرك من تصديق ما يقوله..

– ما اسم عقيدته؟

– أسماها باسمه، البهائية، والإسلام هو العدو اللدود لها.

شعرتُ بأن المدرس متحامل كثيراً على بهاء الله، فلم أحفل برأيه، رغم أن المخطوطة ذاتها لم تترك أثراً في نفسي سوى اندهاشي أول الأمر منها، وبقيت عدة أيام متردداً في سؤال والدي عن سر وجودها في بيتنا، ونحن أسرة لا يشغلنا الدين أصلاً، إلاّ أنني تغلبت أخيراً على ترددي وسألته، فاتقدت عيناه، وبدا عليه الاضطراب والذهول، وخلت أنه سيرفع يده ويصفعني، لكنه أمسكني من ذراعي وهزني قائلاً:

– هل كسرت الصندوق يا ولد؟

قلت متلعثماً خائفاً:

– آسف جداً، لم أعرف أن فيه شيئاً يخصك.

تراخى والدي وأفلت ذراعي:

–لم تكن فضولياً من قبل، ماذا جرى لك؟

– ظننته حاجةً متروكةً ففتحته.

– هل قرأت المخطوطة؟

خفت من ردة فعله إن أجبته بنعم، فقلت:

– ليس كلها، أقصد بعض الصفحات فقط.

– وماذا فهمت منها؟

– أخشى أن تغضب إن قلت.

– لا تخشَ، احكِ.

استجمعت قليلاً من شجاعتي المهدورة، وأخذت أحكي له كيف انتابتني الحيرة في البداية، وظننت أن المخطوطة كتاب في التصوف، وما دار في خلدي من هواجس وتساؤلات، ثم بينت له أن مدرس الدين هو الذي كشف لي عمن يكون بهاء الله حين سألته عنه سؤالاً عابراً.

كان والدي في أثناء ذلك يروح ويجيئ في غرفة نومه، شابكاً يديه أسفل ظهره، وعندما انتهيت سألني بقلق:

– هل أخبرت مدرسك بأمر المخطوطة؟

– أبداً، كيف أخبره؟

– أنت تعرف إذن خطورة الأمر؟ هاتها كي أحرقها.

– سأجلبها حالاً.. لكنك لم تقل لي لِمَ احتفظت بها؟

صمت والدي برهةً، ثم قال:

– إنها لجدك رشيد..

– أكان جدي...؟

– ليس وحده، الأسرة كلها كانت بهائية.

جحظت عيناي من الدهشة، ووضعت يدي على فمي.

– إيّاك أن تفشي السر لأحد.

– لا لا، لن أخبر أحداً.

– لكني حين تزوجت أمك اضطررت أن أتخلى عنها. كنا يومها الأسرة البهائية الوحيدة في كركوك، فلم يرضَ أهلها المسلمون تزويجنا، أنا وأعمامك، من بناتهم. أرجو أن يغفر لي الميرزا.

– الميرزا؟ من يكون هذا؟

– ألم يقل لك مدرّسك إن الميرزا حسين علي النوري هو الاسم الحقيقي لبهاء الله؟

– لا، لم يقل..

– إنه مدفون في عكا.

– هل زرت قبره؟

– مرة واحدة قبل حرب ٤٨. كنت أكبر منك بقليل.

أنهيت محاورتي مع أبي عند هذا الحد، رغم أنني كنت متلهفاً لمعرفة المزيد، وجلبت المخطوطة من غرفتي وسلمتها له، فرفع رأسه إلى السماء وتمتم ببضع كلمات، ثم أغمض عينيه وألقى بها في جوف التنور، حيث كانت أمي قد ألهبته لتخبز العجين الذي أعدته صباح ذلك اليوم المشمس.

٦

خلّف مقتل سلام ألماً كبيراً في نفس كمال. ومما زاده حزناً أنه لا يعرف مكان قبره بالضبط، ولا أحداً من أقربائه كي يدله إليه. في اليوم التالي برقت في رأسه فكرة الذهاب إلى مقهى الجماهير بالكرنتينة، حيث يتخذها بعض الأدباء والكتّاب فضاءً ثقافياً حراً، كي يشيع نبأ مقتله بينهم، ويسأل عما إذا كان أحد منهم يعرف مقبرة عائلته. توقف عن ارتياد تلك المقهى قبل نصف سنة تقريباً، خوفاً من مخاطر العنف الدموي وعمليات الانتقام الطائفي. كان يقصدها بانتظام كل يوم ثلاثاء، مذ أسس فيها عدد من الأدباء ملتقى الثلاثاء الإبداعي قبل الاحتلال. يخرج، عادةً، من الكلية في منتصف النهار، ويذهب إليها متلهفاً للقاء سلام وجهاد، ومحاورة بعض أصدقائه من "جماعة نقد"، وحضور نشاطات الملتقى. وكان يشعر بنوع من التعاطف مع رواد المقهى المنهمكين بلعبة الدومينو: عمّال بناء، وجنود، وطلبة، وأبناء محلّة الكرنتينة العاطلين عن العمل، والهاربين من الخدمة العسكرية، والمطلوبين للسلطة لأسباب شتّى.

في طريقه إلى المقهى لاحظ كمال أن نخلات الكناري وذيل السمك والكاميدوريا، التي كانت تظلل رصيف شارع الوزيرية، قد اختفت كلها، وغُرست مكانها نخلات واشنطونيا طويلة الجذوع، ذات تيجان كثيفة السعف في القمة وشحيحة من الأسفل، كأنها جرار داكنة الخضرة.

كان الوقت مبكراً فلم يجد أحداً من معارفه داخل المقهى. شرب قهوته وأخذ يتطلع حوله، وجد كل الأشياء في مكانها كما رآها آخر مرة: على الجدار الذي يقابله صورتان قماشيتان، واحدة لدببة بوجوه مندهشة يلعبون البليارد، وأخرى لمغني الروك الأميركي الفيس بريسلي بملامح وجهه المكفهرة، وتكشيرته التي تكشف عن أنياب حمر، وبزته البيضاء المزركشة. وفي الفضاء المخصص للمثقفين، الذي يجلس على إحدى كنباته المتهاوية، مازالت مبردة الهواء الشبيهة بكهف كبير تملأ المقهى بهديرها المزعج. وعلى جدران هذا الفضاء رسوم مختلفة لرسام فطري: أزقة بغدادية، نساء جميلات بعباءات، نخلات ثلاث، وبيت بغدادي ذو شناشيل أمامه عربة يجرها حصان هزيل. في الجهة الأخرى لوحة كبيرة لأبناء الكرنتينة وهم يهتفون ويتصارخون

بوجوه نحيلة مصفرّة، وقد اصطفوا حول دائرة لمصارعة الديكة يتوسطها حكَم أعور، ريش مبعثر هنا وهناك، ودماء تسيل.

بعد نصف ساعة من الانتظار تلاشى أمل كمال في مجيء أحد معارفه الأدباء إلى المقهى. شعر بالضجر، وراح يدلك أصابعه ويدعكها بحركة حثيثة، متسائلاً مع نفسه بأسى: "ترى هل سيتألمون لمقتل سلام أم أن إدمانهم على القتل لم يترك فسحةً للحزن في قلوبهم؟ ربما سيكتب بعضهم مرثيةً عنه وينتهي الأمر. أليست هي فرصة أيضاً لمن لا يجد موضوعاً للكتابة؟ سيسألونني حتماً عما إذا كنت أحتفظ بقصص غير منشورة له كي يسعوا إلى نشرها في هذه الصحيفة أو تلك المجلة، أو يبذلوا جهداً لإصدارها في مجموعة. ولكن من يجرؤ على نشرها؟".

انقطع التيار الكهربائي فتوقف هدير المبردة، وارتفعت بدلاً منه أصوات ضربات قطع الدومينو على الطاولات الخشبية، ولغط الجالسين وثرثرتهم. بعضهم أخذ ينفس عن غضبه بتوجيه شتائم لوزير الكهرباء، وبعضهم الآخر بالسخرية من الحكومة كلها. وخلال دقائق أصبح الجو داخل المقهى لا يُطاق. رأى كمال أن من العبث البقاء وتحمل الحرارة، فمسح قطرات العرق التي تدحرجت على جبينه واستقرت عند حاجبيه، واندفع إلى الخارج. توجه إلى الباب المعظم من دون هدف. في الشارع، الذي تنتشر القذارة على جنباته، تتنافس مئات السيارات والدراجات النارية "السكوتر"، في سباق محموم، لاجتيازه. دراجات صينية من نوع "يوهاما" و"موكاتي كلاسيك"، غزت شوارع بغداد على حين غرة عقب غزو المارينز، لأنها وسيلة نقل مثالية في مدينة تنام وتصحو على عمليات القتل والخطف والمداهمات، وتمتلئ بنقاط التفتيش، وتنفجر فيها السيارات على مدار الساعة. لفح وهج الشمس رأس كمال فأخذ يسير لصق جدران البنايات، التي زادتها الشعارات الدينية تشوهاً، ليحتمي بها من الحرارة. مرت من الجهة الثانية للشارع مجموعة عجلات همر أميركية متجهةً صوب الجسر الحديدي، فنظر إليها باشمئزاز.

توقف كمال عن المشي عند رأس الشارع المؤدي إلى الكلية. كان حائراً لا يعرف إلى أين يمضي، تذكّر أنه لم يتناول فطوره، فدلف إلى مطعم مشويات كان يرتاده أيام الدراسة، لكنه انقطع عنه بعد عودته من إسبانيا. تفحص الزبائن القليلين المنهمكين في الأكل فوجدهم كلهم يرتدون ملابس مدنيةً، تنفس الصعداء، وقال لنفسه "الحمد لله ليس بينهم عسكري أو شرطي".

كان يتجنب دائماً الجلوس في مكان يوجد فيه جنود أو شرطة لأنه سيكون عرضةً لعملية انتحارية أو لاستقبال قنبلة يلقيها أحدهم من الرصيف. جلس إلى طاولة في إحدى الزوايا الفارغة وطلب وجبة كباب، وأخذ يتناولها بتلذذ وأناة. بعد لحظات فوجئ بدخول جهاد البشير، دعاه إلى طاولته فسلّم عليه بحرارة وجلس. سأله عما يشغله فأجاب جهاد:

– ما يشغل كل جماعتنا من كوارث. قبل أيام فقدت خمسةً من أقربائي وأخشى أن يأتي الدور عليّ.

– لك الحق، وعليك أن تكون حذراً.

– الجميع حذرون، لكن الحقد الأعمى يغلب الحذر الآن.

– هل مازلت تترجم؟

– أحياناً. ترجمت قبل أيام قصائد عن "العار الإسرائيلي" لشاعر يهودي يساري اسمه أهارون شبتاي. إنه معروف بمناصرته لـ...

صمت جهاد وتلفت حوله، فلمح رجلين مسلحين بملابس مدنية أمام باب المطعم، ثم أكمل بصوت أقرب إلى الهمس:

– يبدو أنّ علينا أن نتكلم مثل أبطال جورج أورويل...

– ماذا تقصد؟

– أقصد أن نتكلم بهمس عن المحذورات.

– تكلم، لن يسمعنا أحد هنا.

– أردت أن أقول إنّ شبتاي معروف بمناصرته لفلسطين، ومواقفه القاطعة ضد الاحتلال، وهو زوج عالمة اللغويات تانيا رينهارت.

– سمعت بها، وأظنها تلميذة تشومسكي؟

– إنها مفكرة نقية وشرسة مثل لبوة.

ابتسم كمال وجال ببصره في إرجاء المطعم، وقال هامساً:

– غريب أن أسمع هذا الكلام من فلسطيني.

– لأن رينهارت هذه من ألد أعداء الصهيونية، ولذا لم تطق البقاء في جامعة تل أبيب، فغادرت إسرائيل نهائياً.

ألقى كمال نظرةً خاطفةً إلى الباب، فلاحظ أن الرجلين المسلحين ما عادا موجودين، وقال:

– لماذا لا تكتب أنت عن عار الميليشيات المناهضة لكم هنا؟

– هذه عارها أكثر خزياً من العار الإسرائيلي. لقد تجاوز عدد ضحاياها من الفلسطينيين حتى الآن ضحايا مذبحة صبرا وشاتيلا.

– اكتبْ عنها وانشره في الخارج.

– كتبتُ يا صديقي باسم مستعار. كتبتُ عن شاتيلا بغداد، ومآسي الحدود في مخيمات الوليد والتنف وطريبيل!...

لم يقرأ كمال، بعد انقضاء أكثر من عشرة أيام على موت سلام، أي كلمة رثاء عنه، أو حتى خبر في صحيفة، رغم أن أغلب أصدقائه ومعارفه الكتّاب علم بنبأ مقتله، فقرر أن يكتب عنه مقالةً طويلةً ويرسلها إلى أحد المواقع الثقافية. بعد يومين نشرت المقالة كاملةً، فأخذت بضع صحف محلية مقاطع منها، وخاصةً المقدمة التي شبه فيها مقتل سلام بمقتل لوركا، وحكى عن رحلتهما إلى قبره في غرناطة قبل ستة عشر عاماً. ولم ينسَ كمال أن يرفق بالمقالة قصةً قصيرةً لسلام، كانت آخر ما كتب، وهي بعنوان "يقظة تمثال الحرية"، استلهمها من مدونة لجندي أميركي فرّ من الخدمة في العراق، إثر أول عملية عسكرية شارك فيها. وبعد فترة اختفاء في أميركا هرب عبر الحدود إلى مدينة نياغارا فولس الكندية، واتخذ لنفسه هناك اسم "جوشوا كي". اعتقد هذا الجندي، أول الأمر، أنهم أرسلوه ليحارب جيشاً، لكنه وجد نفسه متورطاً في دهس الأبرياء، وحراسة حفلات اغتصاب. أرسلوه مع فصيله لاقتحام أحد المنازل بحجة البحث عن إرهابيين وأسلحة، في حين لم يكن هناك غير أسرة عادية جداً. حطموا كل شيء، قطعوا المفارش والمراتب بالسكاكين، كسروا الأثاث واعتقلوا الموجودين، وأخذوهم خارج المنزل، لم يكونوا غير طفلين ومراهقة وامرأة وشاب مراهق وآخر في بداية العشرينيات.

المرأة المهانة قالت في غضب: "أنتم الأميركيون حقراء، من تظنون أنفسكم لتفعلوا بنا هذا"، فكان الجواب: ضربة ببندقية على وجهها. سقطت على الأرض وهي تنزف، بعدها جرى ما لم يكن يتصوره الجندي في كوابيسه، دفعوا النساء إلى داخل المنزل، وولج ضابط أميركي يحمل أعلى رتبة، ووقف الجندي مع الآخرين في نوبة حراسة. ظلت الأبواب والنوافذ مغلقةً مدة ساعة،

وما من صوت غير صراخ النساء المغتصَبات. وفي النهاية: أوامر بالانصراف، وكأنّ لا شيء جرى.

٧

اعتادت فيفيان على النزول إلى شقة كمال كل يوم أحد. تأتي إليه بفستانها الأسود بعد رجوعها من الكنيسة مباشرةً، ويكون هو قد سبقها في العودة بعد انتهائه من محاضراته في الكلية. وما إن تدلف بابتسامتها الماطرة، كما لو أنها ألقت خطاياها في بحيرة، حتى تقول له إنها دعت يسوع في صلاتها أن يحفظه من كل أصناف القتلة. وإذا كانت الكهرباء تنبض بالحياة تجلس أمام مبردة الهواء وتشرب معه نخب بقائهما حيين، وتحدثه عن الخوري بنيامين الذي ما انفك يعرض عليها الزواج، وعن صديقاتها اللواتي تلتقيهن في القدّاس، في حين يحكي لها كمال تارةً عن نسرين واسبانيا وأهله في شهربان، وتارةً عن متاعبه في الكلية بسبب التصعيد الحزبي والطائفي. وحين ينتهيان من كأسيهما تباشر فيفيان عملها في المطبخ، وينصرف كمال إلى القراءة أو الكتابة. أما إذا كانت الكهرباء مقطوعةً فإنها تكتفي بوضع قِدر الطعام على النار، أياً كان نوعه، وتوكل له مهمة متابعته حتى ينضج، وتغادر مسرعةً إلى شقتها لتتحرر من ثيابها وتغطس جسدها في ماء البانيو، الذي تملؤه في الليل، عادةً، ليظل محافظاً على برودته في النهار.

في ذلك اليوم، الخامس والعشرين من حزيران، تأخرت فيفيان عن موعدها، انتظرها نحو ساعتين، ظناً منه أن أمراً ما شغلها، أو لديها ضيفةً، ثم قرر أن يقصد شقتها. وقبل أن يرتقي درجات السلّم أطل إلى الأسفل من فراغ حلزون السلالم ليتأكد من عدم وجود راهبة في تلك اللحظة، فلفحه تيار هوائي مشبع برائحة سمك مقلي. حين بلغ ممر الطابق الذي تقيم فيه فيفيان سمع ضجةً قويةً تنبعث من شقتها، ورغم أن بابها كان موصداً، فقد بدا واضحاً أنها ضجة أصوات نسائية. تردد في طرق الباب، وساورته فكرة الاستفسار عما يجري من جارتها ألماس، لكنه سرعان ما رأى أن ذلك سيكون محرجاً، فهو لم يسبق له أن تكلم معها، وحين كانت تسلّم عليه، بحرارة غريبة، كلما التقاها عند باب البناية أو على السلّم، كان يتجنب النظر إليها، ويبخل في رد التحية لها، يجيبها بكلمة واحدة أو بكلمتين ليكبح أي رغبة تراودها في معاشرته، خاصةً

أنها امرأة عابثة، حسب رأي راهبة، ولا أحد يعرف من أين يأتيها المال الذي تنفقه على نفسها بعد مقتل زوجها بحربة مسمومة على يد شاب ميليشي.

أخيراً حسم كمال أمره وقرر أن يطرق باب ألماس، لكنه في اللحظة التي خطا فيها خطوتين باتجاه شقتها فُتح باب شقة فيفيان وخرجت منها امرأتان، فشعر بارتباك جعله يجمد في مكانه. ارتقت إحداهما، مرتديةً عباءةً تقليديةً، الدرج بسرعة فائقة من دون أن تلتفت إليه، أما الثانية فقد ظلت واقفةً خلفه، وباغتته قائلةً بجرس حرصت على إضفاء دهشة مصطنعة عليه:

– غير معقول!

أدار رأسه إليها فإذا بها ألماس، وعلى ثغرها ترتسم ابتسامة مشرقة. أنزلت حجابها إلى رقبتها، فبدا كأنه طوق ياسمين يحيط ثغرة نحرها، وانسدلت خصلات شعرها الذهبي، المزيّن بخطوط ميش شقر، على عباءتها الخليجية، وأردفت:

– أكيد جئتَ تطمئن على فيفيان.. لا تقلق عليها إنها بخير..

تحسس كمال جبهته، مأخوذاً بجمال وجهها الذي بدا له أكثر نضارةً، مثل زهرة يانعة، من غير الخرقة التي تغطي رأسها، وشعر بوجود شبه بينها وبين الفتاة الغجرية التي هام بها سلام، وقال:

– لا أبداً، أقصد لا علم لي بشيء. سمعت هنا ضجةً فدفعني فضولي إلى الصعود. ماذا حدث لها؟

– شيء فظيع، لكنك لن تستطيع زيارتها الآن. بيتها مليئ بالنساء، أنا سأحكي لك.

فتحت ألماس باب شقتها، ودعت كمال إلى الدخول، إلاّ أنه تسمّر في مكانه، وراح يحدّق إليها بدهشة. كررت دعوتها له فولج متوجساً. الشقة نظيفة ومبخرة، أثاثها المرتب يشع بلمسات أنثوية، جدرانها مدهونة بعناية ومزدانة بأزهار وأغصان اصطناعية ذات ألوان مختلفة. وثمة مكتبة صغيرة مكونة من ثلاثة رفوف معلقة على الجدار الأيسر، لفتت انتباهه أكثر من غيرها، فتذكّر أنه قرأ مرةً عبارةً تقول "البيت الذي ليس فيه مكتبة لا يؤتمن جانبه".

أشارت له ألماس أن يجلس على أريكة مغلفة بقماش مطرز، وخطت إلى النافذة وأزاحت ستارتها، وفتحتها على مصراعيها لينفذ الهواء، ويخفف قليلاً من حرارة الجو، وتساءلت:

– ممّ تخاف سيد كمال؟

تطلع كمال إلى أرجاء الشقة، وردّ عليها بنبرة لا تخلو من القلق:

– الجيران، أقصد ربما...

قاطعته:

– أي جيران وثلاثة أرباع البناية أرامل؟

– أليس في ذلك حرج؟

أجابت بثقة:

– لا حرج ولا هم يحزنون.

تجردت من عباءتها ورمتها على ذراع الكرسي الملوكي، فبزغ جسدها الثلاثيني، المنحوت بدقة، مجدولاً يتثنى تحت ثوبها الأزرق القصير، المنقط بدوائر بيضاء، كأنه قطعة من سماء صافية تغمرها النجوم. اتجهت إلى غرفة نومها فتابعها كمال بنظراته الحرّى. رشت جسمها ببخاخ معطر، ودهنت رقبتها وصدرها بدهن العود، وسوّت بأصابعها تسريحة شعرها. عادت بعد لحظات حاملةً علبةً خشبيةً بحجم علبة المناديل الورقية، فيها حلوى "مَنّ السما". قدمتها لكمال فأخذ واحدةً منها، ودست هي واحدةً في فمها وجلست على الكرسي الملوكي، وقالت مستأنفةً حديثها:

– الناس يقتلون وينهبون ولا يشعرون بالحرج. ألا يكفينا الجحيم الذي نعيشه خارج البيت؟ يفرضون علينا الحجاب في الشارع ثم يخطفوننا تحت تهديد السلاح ويغتصبوننا في أقبيتهم. خرا عليهم وعلى الأميركان.

– بلى، بلى، خرا على الجميع.

أجابها كمال بتلقائية من دون أن يعي ما قالته، ولا حتى الكلمات التي تلفظ بها، فقد أثملته رائحة دهن العود، وأربك قوامها الفاتن بقية حواسه.

عاد التيار الكهربائي فجأةً، فأطلقت ألماس آهة فرح وأسرعت إلى النافذة وأغلقتها، ثم أدارت مفتاح تشغيل مكيّف الهواء المدفون في الحائط، فانتفض مثل وحش وخزته آلة حادة، وملأ هديره الصالة. ولما استدارت قال لها كمال:

– أنا آسف سيدة ألماس لأنني جاريتك في الكلام حول...

ضحكت برقة:

– أسلوبك مهذب جداً سيد كمال، هل تفضّل أن أناديك هكذا أم أستاذ كمال؟

– كمال فقط.

ابتسمت وأشارت بسبابتها إلى عينيها، دلالةً على استجابتها. سمع كمال خليطاً من الأصوات في الممر يشبه طنين خلية نحل، ثم تحول الصوت إلى لغط مرتفع، فسأل بصوت خافت:

– ماذا يجري هناك؟

– أعتقد أن النساء خرجن من عند فيفيان.

– لم تخبريني ماذا حدث لها.

– وجهها أصفر كالكركم. لم تصب بأذى جسدي، لكنها مرعوبة.

خفق قلب كمال:

– مفخخة أم عبوة ناسفة؟

– لا مفخخة ولا عبوة ناسفة، تقول إن ملثمين أطلقوا الرصاص على المصلين أثناء خروجهم من الكنيسة. ومن حسن حظها أنها تأخرت قليلاً لتتحدث مع الخوري، لكنها رأت جثث القتلى أمام الباب.

أشاع المكيف برودةً لذيذةً في الصالة، فرأت ألماس أن الفرصة أصبحت مؤاتيةً لتتحدث مع كمال حول موضوع يؤرقها، قالت:

– هل استطيع أن أسألك سؤالاً شخصياً؟

وافق كمال بحركة من رأسه، وهو يحدق إلى عينيها الواسعتين، اللتين صارتا تشعان وهجاً أكثر لمعاناً من وهج الضوء. سألته:

– أما زلتَ على علاقة بنسرين؟

أدهشه سؤالها المباغت، وشعر بأنها تحوك في رأسها أمراً ما:

– من أين تعرفينها؟

– أعرفها مذ كنا في مدرسة واحدة.

رمقها كمال بنظرة شك حادة:

– هل أنت كردية أيضاً؟

– لا، ولكن ماذا تقصد بأيضاً؟

– أقصد مثل نسرين.

ضحكت ألماس:

– نسرين ليست كرديةً.

– كيف ليست كرديةً؟ عاشت معي خمس سنوات ولا أعرفها؟

– وأنا أعرفها منذ عشرين سنة في كركوك.

– لكن نسرين من أربيل.

ضحكت ألماس مرةً أخرى:

– هي قالت لك؟

– نعم، وحكت لي كيف تركت أسرتها المدينة وجاءت إلى بغداد.

– هذه قصة ملفقة. كان أهلها جيراننا، وهربوا إلى أربيل عام ١٩٩١ خوفاً من الجيش حينما اقتحم كركوك، وربما نزحوا إلى إيران أو تركيا مع النازحين ثم عادوا. لكني لا أعرف كيف جاءوا إلى بغداد بعد ذلك.

تنهد كمال تنهيدةً عميقةً، وتذكّر أنه كان محقاً حينما شكّك في القصة يوم حكتها له نسرين، ثم قال:

– أمر غريب، لماذا اختلقتْ ذلك؟

– ليس الأمر جديداً، كثيراً ما كانت تكذب في المدرسة.

– معنى ذلك أنها تركمانية.

– لا أحد يعرف بالضبط، كانت مرةً تقول إنها من أصل أفغاني، ومرةً إن جدها ينحدر من القوقاز، ومرةً تدعي أنها من أب تركماني وأم فَيليّة، وأخيراً قالت لك إنها كردية.

– وأنتِ؟

رفعت ألماس شعرها بخفة وجمعته خلف عنقها وقالت:

– أنا عربية، جئت إلى بغداد لإكمال دراستي الجامعية وتزوجت بعد التخرج.

– هل التقيتِ نسرين في ما بعد؟

– لكنك لم تجب عن سؤالي، أما زالت علاقتك بها قائمة؟

– كلا، انتهت.

بدت على وجه ألماس علامة ارتياح، فنهضت من مقعدها وجلست على الأريكة التي يجلس عليها كمال، وقالت:

– التقيتها صدفةً مع صبية في أحد المطاعم قبل عشر سنوات، ثم صرنا نلتقي في أوقات متباعدة. وذات يوم، بعد مرور سنة على الاحتلال، رأيتها في عيادة طبيبتي النسائية فأخبرتني بأنها تزوجت أستاذاً في الجامعة أصله من شهربان.

– كانت تتمنى ذلك، لكننا لم نتزوج.

اقتربت ألماس قليلاً إلى ناحية كمال، وسألته:

– ولا حتى زواج متعة كما كان يشاع بين الجيران؟

– أبداً. راهبة أشاعت ذلك، والحقيقة أننا بقينا أصدقاءَ حتى يوم سفرها إلى أربيل.

– لكن نسرين لم تسافر إلى أربيل.

– أقصد قبل سفرها إلى سوريا.

– لم تصل إلى أربيل قط، ذهبت إلى خالتها في كركوك، وهناك تعرفت على أميركي يعمل في القنصلية، فوعدها بأن يأخذها معه إلى أميركا، لكنه سرعان ما اختفى، شبع منها وتركها. ويبدو أن فشلها هو الذي دفعها إلى الهجرة إلى سوريا.

شعر كمال بأن شيئاً ما أخذ يتفكك في داخله، ويتحول إلى ذرات رماد تخرج من مسامات جلده. وفي الخارج بدأت ترتفع أصوات انفجارات متقطعة من جهات مختلفة وكأن الحرب بدأت مجدداً، فأحس على الفور بنبضات سريعة بين فخذيه. وضع ساقاً على الأخرى كي لا يجلب انتباه ألماس، وسألها بصوت امتزجت فيه اللهفة بالخيبة:

– من أين عرفتِ هذه القصة؟

قالت:

– بيت خالتها على مقربة من بيت أهلي، وهي التي حكت القصة لأختي.

– أنت تفاجئينني بهذه المعلومات، نسرين كانت تكره الأميركان.

– ليست وحدها من يكره الأميركان.

لزم كمال الصمت، فاقتربت ألماس إليه أكثر حتى كادت تلامسه، وقالت له بصوت خفيض:

– أنا آسفة..

أدار كمال رأسه تجاهها:

– بالعكس ألماس، أنا يجب أن أشكرك.

ابتسمت له فأضاف:

– هل كنتما تلتقيان هنا؟

– قطعتُ علاقتي بها بعدما أجّرت لي الشقة بأسبوع.

– نسرين أجّرت لك هذه الشقة؟

– نعم، كنت وقتها لا أزال في فترة الحداد، وقد غضبت عليها وأنهيت صلتي بها لأنها حاولتْ أن تشبكني برجل ثري كان يلقب بالأناضولي.

انتفض كمال مثل مَن أصابته لسعة:

– مستحيل!

– هل تعرفه؟

– طبعاً أعرفه. رجل سافل وقوّاد. لكن معنى ذلك أن نسرين كانت تتصل به.

– أكيد، وإلاّ كيف أرادت أن تجمع بيني وبينه؟

بقي كمال متوتراً من دون أن يقول شيئاً، وشعر بتفصد حبات عرق تحت إبطه. كان على محيّاه تعبير غريب، حزين وغاضب في الوقت نفسه. وبعد هنيهة أطرق رأسه إلى الأرض وغطى وجهه براحتي يديه. أما ألماس فقد لزمت الصمت أيضاً، لكنها كانت مبتهجةً من الداخل، شاعرةً بأنها نجحت تماماً في توجيه سهمها إلى الهدف.

مر وقت غير قصير قبل أن يستعيد كمال صفاءه. طلب منها أن تقدّم له كأس ماء بارد، فأسرعت إلى المطبخ وعادت حاملةً كأسين، أحداهما مملوءة بالماء والثانية بعصير الليمون، وقالت:

– اشرب الماء أولاً ثم خذ الليمون، إنه مريح للجسم والذهن.

– أشكرك ألماس. أنت اليوم أيقظتني من غفلة، ليتنا تعارفنا منذ أمد طويل.

رمت نفسها إلى جانبه وبسطت ذراعها على حافة ظهر الأريكة خلف كتفه، وقالت بنبرة ناعمة تقطر أنوثةً:

– أكان عليّ أن أطرق بابك حتى نتعارف؟ حاولت أكثر من مرة أن ألفت انتباهك فلم تحرك ساكناً.

أرخى كمال عموده الفقري على الأريكة، وألقى برأسه إلى الوراء حتى لامس ذراع ألماس، فانتابه شعور بالارتياح، وطغت عليه رغبة جامحة في أن يحتضنها، إلاّ أنه كبت تلك الرغبة، وودّ أن تأتي المبادرة منها كي لا يجول في خاطرها أنه رجل متهالك. أدار وجهه إليها وسألها:

– ألماس، هل تسمحين لي ببعض الأسئلة الشخصية؟

أومأت له موافقةً.

– تعيشين وحدك هنا، هل أنت موظفة؟

– كنت موظفةً وتركت الوظيفة بعد مقتل زوجي.

– والآن كيف تسيّرين أمورك؟

– من التعويض الذي حصلت عليه..

– الميليشيات صارت تدفع تعويضاً؟

–لم تقتله أي ميليشيا، أنا أشعت ذلك. قتله أصدقاؤه، أطلق عليه النار قناص أميركي من نقطة تفتيش. يومها كنا شبه منفصلين عن بعضنا لأنني اعترضت على عمله مترجماً لشركة بلاك ووتر.

– ما هذه المفاجآت التي تنهال على رأسي اليوم؟

– الدنيا كلها مفاجآت. أرجو أن يبقى السر بيننا.

– لماذا لم ترجعي إلى أهلك؟

رسمت ألماس ابتسامةً مشعةً على ثغرها، ووضعت يدها على يده، وقالت:

– لن أخبرك الآن، بل حين تتوثق علاقتنا أكثر.

لاحظ كمال أول مرة أن اصابع ألماس طويلة وجميلة، وقد صبغت أظافرها بطلاء زهري يشبه حمرة شفتيها، فقال متلهفاً:

– اعتبريها موثقةً منذ اللحظة.

مالت إليه وقرّبت فمها من أذنه، وقالت بهمس:

– أنا أنتظر هذه الفرصة منذ زمن، لكن يجب أن تتوثق عمليّاً.

كانت شفتاها منفرجتين ورائحة أنفاسها تلفحه، فخالجه إحساس عارم بأنهما تتوقان لشفتيه. أمسكت بيده ووضعتها على صدرها، وقالت:

– لدي مال يكفينا لحياة سعيدة، لكن عِدني بالزواج.

استشعر كمال تحت أصابعه نبض نهديها، فردّ بصوت مرتعش:

– ليس قبل أن أملأ يدي الخاويتين.

٨

بدا ليل المدينة مختلفاً أمام ناظري كمال عقب لقائه العاصف بألماس. أطل إلى الشارع من الشرفة الملحقة بغرفة نومه، فأشعره هاجس في داخله بأنه أقل عتمةً وأكثر سكينةً من الليالي السابقة. رأى القمر الأسيل والرائق يسكب هالةً من الفضة على أسطح المنازل والبنايات، وزرقة السماء تسحب الأرض إليها. لكنه في غمرة زهوه شطح باله إلى نسرين. كان قد قرأ رسالتها الجديدة قبل ساعتين فتأكد أن ألماس لم تكن متحاملةً عليها، ورغم ذلك أخذ يحاول أن يتلمس لها أعذاراً. استرجع كل ما أسعفته به ذاكرته من سنواته الخمس معها فلم يفلح في إيجاد عذر واحد. قالت له في تلك الرسالة:

"أكتب لك هذه المرة من دمشق.

أعزيك بموت العزيز سلام. صدقني لم أعلم بمقتله إلاّ ليلة أمس. أخبرني صديقك الصحفي هلال السومري حين التقينا في كازينو "الروابي" الذي أعمل فيه. إنه نادٍ ليلي يقع في منطقة "الحامي" شمال غرب دمشق، وقد جاء إليه ليكتب تحقيقاً صحفياً عن العراقيات اللواتي هربن من العنف في البلد، واضطررن إلى العمل هنا في الملاهي... لقد خجلت منه كثيراً وبكيت. كان يعتقد بأنني زوجتك، لكنني أوضحت له أننا كنا أصدقاءَ. وعرض عليّ أن أصحبه إلى بغداد لأعود إليك فاعتذرت. قلت له لن أستطيع مواجهته حتى لو غفر لي، رغم أني أعرف نبلك وقلبك الكبير...

غادرت بيت عذراء إلى دمشق قبل أسبوعين فقط. زوجها الحقير أخذ يستغلني ببشاعة. كان يعطيني في اليوم مبلغاً بخساً ويستولي هو على عشرة أضعافه. العمل هنا في الكازينو أقل خسة من هناك. لا أحد يرميني رغماً عني في أحضان خليجي مهووس كما يُرمى كيس قذارة للكواسر. غالباً ما يكون عملي خلف الصالة، أنظف وأساعد الطباخ في تهيئة مستلزمات الطهي، وفي أحيان قليلة أحُلّ داخل الصالة محل إحدى البنات إذا ما غابت لسبب طارئ.

تصور يا كمال، حتى هذا العمل لم يكن من السهل أن أحصل عليه من دون توصية موظف في القنصلية الأميركية اسمه "جون ليبرمان". إنه رجل ودود وغير متحمس للاحتلال مثل الآخرين. التقيته صدفةً في فندق الشيراتون بساحة الأمويين، بينما كنت أبحث عن عمل. وسبق لي أن تعرفت إليه في أربيل حين كان يعمل في قنصلية بلده هناك قبل أن يُنقل إلى دمشق. أراد التكفير عن ذنبه، كما يقال، لأنه وعدني ذات يوم بأن يحصل لي على اللجوء إلى أميركا فأخلف وعده. اعترف بأنه حاول مساعدتي لكن محاولته باءت بالفشل. ووعدني مرةً أخرى بأن يبذل جهداً لتحقيق رغبتي، ولكن قبل كل شيء عليه أن يجد لي عملاً أعتاش منه، فاستغل علاقته القوية بتاجر عراقي يمتلك مكتباً تجارياً في دمشق، وطلب منه أن يشغّلني معه، إلاّ أن هذا لم يكن في حاجة إلى خدماتي، عنده سكرتيرة في سن العشرين تقوم بكل الواجبات، ولذا عرض عليّ أن أعمل في نادٍ ليليٍ يتردد عليه كثيراً، وتربطه بإحدى مغنياته علاقة وثيقة، وهي ذات حظوة عند مدير النادي. وهكذا اشتغلت بوساطة هؤلاء الثلاثة في مهنتي التي أزاولها الآن.

لا أعرف الاسم الحقيقي لهذه المغنية، لكنها تتسمى باسم مستعار. إنها فتاة ممتلئة الصدر، يقدّمها رئيس الفرقة الموسيقية لرواد النادي، كل ليلة، بكلمة يقول فيها "الليلة أقدم لكم عسل جميع المسارح.. سارقة القلوب.. صاحبة الحنجرة الذهبية.. الفنانة الفاتنة ماريا"، وما إن تدخل إلى المسرح بصحبة أربع راقصات شابات حتى تشرع في الغناء الريفي الحزين، وتجتر توجعها وحنينها إلى الوطن "اللي مضيع ذهب بسوق الذهب يلقاه .. واللي مضيع محب بلكت (ربما) سنة وينساه .. بس اللي مضيع وطن وين الوطن يلقاه". أما الراقصات، اللواتي يلبسن، عادةً، تشكيلاتٍ من رسومات جلد النمر، فيأخذن في الدوران حولها، ويدرن رؤوسهن في لفات واسعة على طريقة الغجريات، وتضفي أضواء المسرح على أجسادهن ألوان المصابيح. وغالباً ما تختم المغنية فقرتها بعبارة "بعد العراق ليس لي وطن.. أنا على استعداد للزحف كي أعود إليه.."، فتثير أشجان الحاضرين من العراقيين، الذين تعبق الصالة بروائح كحولهم ودخان أراجيلهم، لكنهم يبخلون عليها بالتصفيق، مكتفين بالتأوهات وكأنهم في بيت عزاء.

أقيم الآن في شقة تعيسة بحي السيدة زينب مع أسرة عراقية نازحة من الدورة، عدد أفرادها أربعة: الأم وابنها الصبي وابنتاها الشابتان، وهم يعيشون على المساعدة التي تصلهم من الأب

اللاجئ في هولندا، وينتظرون لمَّ شملهم معه منذ سبعة أشهر. السوريون يطلقون على هذا الحي الشعبي اسم بغداد الصغيرة، وعلى الشارع الرئيسي فيه اسم الشارع العراقي، لأنه مليء بالمحلات التجارية والمقاهي التي تقدّم خدمتها على الطريقة العراقية، وهي تحمل أسماء مثل "مطعم الفلوجة"، و"مخبز بغداد"، و"سفريات الديوانية".

إنني أعذرك لعدم اتصالك بي بعد رسالتي الأولى.. لك الحق في أن تغضب وتقاطعني على تصرفي الأحمق الذي أوصلني إلى هذا المنحدر...".

ترك كمال الشرفة وذهب إلى مكتبته وتناول أوراق مخطوطته، وقبل أن يبدأ في الكتابة ألقى نظرةً خاطفةً من النافذة فرأى لافتةً سوداء، مثبتةً على السياج المحيط بنخلة الواشنطونيا، دُوّن عليها بخط أبيض عريض "ارفعوا هذه القمامة وأعيدوا لنا نخلتنا". خمّن أن الصيدلاني هو من وضعها، فهزّ رأسه وراح يكتب:

"ما لبثت نسرين أن عادت من الحمام بعدما أصلحت تسريحة شعرها ومكياجها على عجل. بدا لي وجهها أكثر شبهاً بوجه فيرونيك، فحملت كأسي واتجهت إليها. سلّمت عليها وصافحتها بحرارة، فأحسست من لهجتها بأنها ربما تكون كرديةً أو تركمانيةً، وعبّرت لها عن إعجابي بأدائها، وقلت، متملقاً، إنها تصلح لأن تكون راقصة فلامنكو، فشكرتني ودعتني للجلوس على الأريكة إلى جانبها. أفرغتُ ما تبقى من النبيذ في كأسها ودعوتها إلى شرب نخب تعارفنا، فاستجابت عن طيب خاطر. سألتها إن كانت عزباء أو متزوجة، فأشعلت سيجارةً وسحبت منها نفساً طويلاً، وقالت:

– لا هذه ولا تلك، أنا مطلقة.

– منذ متى؟

احتست جرعةً من كأسها:

– منذ سنتين.

لكنني لم أشأ أن أسألها عن سبب طلاقها لئلا أفسد الأمر، بل عرضت عليها أن نجلس وحدنا في مكان آخر، متحججاً بأنني أريد التحدث معها في موضوع خاص جداً، فرفعت على الفور قميصها الملقى على الأريكة وشدت به خصرها وسارت أمامي صوب الدرج. وجدنا

كرسيين فارغين خلف طاولة صغيرة في ركن منعزل تقريباً، فأسرع أحد الخدم إلى حمل عدتنا وجاء بها إلينا. كان الضوء خافتاً هناك، فأحسست بأنه يضفي على المكان قليلاً من الشاعرية. أردت أن أتملى صدرها العاري، وأتشبع بمشهد ثدييها البارزين من بين البودي الأحمر المعلق بخيطين رفيعين، فأزحت أحد الكرسيين وجلست قبالتها أمام الطاولة، وقد تعمدت أن أجعلها تعطي ظهرها إلى الجهة التي تجلس فيها ماريدا لأقطع أي تراسل بالإشارات بينهما.

– أرجو أن لا تزعل صديقتاكِ لأني انتزعتك منهما.

– عذراء فقط صديقتي، أما الأخرى فهي من معارف ماريدا.

– هل تخافينها؟

– مَنْ؟

– السيدة ماريدا؟

سألتها متوقعاً أنني سأباغتها، لكنها هي التي باغتتني بردها السريع الصادم:

– ماريدا قوادة وليست سيدةً.

– ماذا تقصدين؟

– إنها توفر نساء جميلات للرجال الذين تعرفهم.

– وأنتِ؟.. أعني ما علاقتك بها؟

– أنا عشيقتها المفضلة فقط.

صدمتني مرة أخرى فرفعت بصري إلى ماريدا باستغراب، رأيتها تراقبني بنظرات شرسة:

– قوادة وسحاقية؟ هل تقيمين معها؟

التفتت نسرين صوب ماريدا وأرسلت نظرةً خاطفةً إليها:

– لو كان عندي سكن لما بقيت معها دقيقةً واحدةً.

– لم لا تسكنين مع أهلك؟

– ليس لي أهل في بغداد، عادوا إلى أربيل بعد زواجي.

– هل أنت كردية؟

– أبي كردي وأمي تركمانية.

– أعيش وحدي في شقة صغيرة تكفي لاثنين.. إن شئتِ نتقاسمها.

ترددتْ في البداية، وراحت تتأمل في عينيّ بعمق، ثم حسمت أمرها وأطبقت يديها على يدي:

– سآتي صباح غدٍ قبل أن تصحو ماريدا من النوم.

– منذ متى تعرفينها؟

– منذ خمس سنوات. كان زوجي يعمل سائقاً عند الكلب إحسان الأناضولي، وذات يوم طلب منه أن يحضرني إلى بيته ليعرض عليّ أمراً ما. كان يسكن في قصر آخر، غير هذا، في حي المنصور. سألني إن كنت أستطيع الاستغناء عن زوجي بضعة أيام، فقلت له أستطيع إن كان الأمر ضرورياً، وذهب بي الظن إلى أنه يريد أخذه معه في رحلة إلى الخارج، لكنه قال لي إن سيدةً ذات شأن رفيع من معارفه فقدت مربية ابنتها الوحيدة ويطلب مني أن أحلّ محلها إلى أن تجد واحدةً مناسبةً. كانت تلك السيدة هي ماريدا. لم نستطع طبعاً، لا أنا ولا زوجي، الاعتراض على طلب الأناضولي، وقد أُرغمتُ على أداء دور المربية نصف سنة بدلاً من بضعة أيام. كانت ابنتها جُلدران صبيةً في بداية مراهقتها آنذاك، وتحتاج إلى من يرعاها ويخفف عنها صدمة طلاق أمها وغياب أبيها عن البيت. لم تكن تسمح لي بالذهاب إلى بيتي إلاّ يوم الجمعة فقط، لأن ماريدا كانت على حل شعرها، تغيب أحياناً يومين أو ثلاثة أيام في الأسبوع. وكان زوجي يستغل غيابها ويتسلل إليّ في الليل، بعد أن تنام البنت، كلما سنحت له الفرصة. في الحقيقة أنا التي كنت أحثه على ذلك. ماذا تفعل المرأة حينما يظل فراشها بارداً وهي في الأشهر الأولى من زواجها؟ كنت ألجأ إلى مشاهدة الأفلام التي تخبئها ماريدا في خزانة ملابسها فيأتي هو ليطفئ النيران التي تضرمها في داخلي. كثيراً ما كنا نفعلها في الحمام لكي أوهم البنت، إذا ما استيقظت من نومها، بأنني أتحمم. وكانت تسألني دائماً لماذا أفضّل الاستحمام في وقت متأخر من الليل فأكذب عليها بأن الشيطان ينام عند منتصف الليل عادةً فلا يرى جسدها حينما تتعرى. كذبة بيضاء أليس كذلك؟ لكن صديقك الملعون سلام الياسري فضح أمري أخيراً. كنت أعرف أنه يختلي بها في غرفة نومها حينما تكون ماريدا خارج البيت، فتنصّتُّ عليهما ذات يوم قبيل غروب الشمس، سمعته يطلب منها خلع ملابسها لكي يتأكد من أرومتها العباسية، فسألَتْه الصبيّة عن علاقة التعري بأصل الإنسان، قال لها إن دارون يؤكد على وجود علامات في الأماكن الحساسة من جسده تكشف عن أرومته. ويبدو أن كذبتي ظلت عالقةً في ذهنها فتحججت بأنها لا تستطيع أن تتعرى لأن الشيطان ما زال مستيقظاً، إلاّ أن صديقك أقنعها بأن

الشيطان فكرة خرافية ولا وجود له في الواقع أصلاً، وهكذا ضحك على عقل البنت فأسلمت له جسدها، وجعلها تتأوه بين يديه. وحين سألتُه: لماذا فعلت ذلك مع البنت وهي لا تزال صبيةً؟ قال: لا أدري، وجدت نفسي منشداً إليها لأنها تشبه فتاةً همتُ بها قبل بضع سنين، لكنها ضاعت مني للأسف.

بمرور الأيام صار الأمر عادياً بين صاحبك وتلميذته كلما اختليا في غرفتها. كانت ماريدا تعتقد بأن وجودي في البيت هو صمام أمان لابنتها أكثر من وجود خادمتها الخرساء المنشغلة بأعمال البيت، لكنّ جُلدران هددتني بأنها ستنتحر إذا ما أفشيتُ السر لأمها، واعترفت لي بأن الأستاذ حذر جداً معها ولا شأن له ببكارتها...

لم تظهِر ماريدا أية ميول سحاقية تجاهي طوال الأشهر الستة التي قضيتها مربيةً مؤقتةً لابنتها. كانت مزاجيةً في علاقتها بي، تارةً تعاملني بمنتهى اللطف والسخاء، وتارةً ببعض الخشونة والبخل، لكني لم أنقطع عن الذهاب إلى بيتها بعد حصولها على مربية دائمة، وحين انفصلتُ عن زوجي أقنعتني بأن أسكن معها، وشيئاً فشيئاً بدأت توثق علاقتها بي.

ذات ليلة أغرتني بشرب المزيد من الكونياك الذي يوفره لها هذا الحيوان الأناضولي، ثم استدرجتني إلى غرفة نومها لأعمل لها مساجاً، ولكن القوادة لم تكتفِ بتدليك جسدها، بل أرغمتني على إمتاعه. وهكذا أصبح لزاماً عليّ أن أنام معها مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع.

– أمر غريب! حدثني سلام عن كل شيء إلاّ عن ميولها السحاقية.

– إنه لا يعرف هذا الجانب في شخصيتها. وأنا لم أكشف له السر.

– وبعد؟

– كنت أخرج مع جُلدران أحياناً إلى السوق أو لزيارة أبيها، من غير علم ماريدا، في شارع حيفا، حيث كان يعيش وحده في شقة فاخرة اشتراها عقب طلاقه، لتنتزع منه ما تحتاج إليه من نقود، وكانت حصتي هي النصف دائماً. بصراحة كنت أنا من يحرضها على ذلك.. شعرة من جلد خنزير كما يقولون.

ودّعتُ نسرين بعد انتهاء الحفلة، ورافقتُ سلام حتى بيته، ثم عدت إلى شقتي في الثالثة فجراً. كانت تقلقني علاقتي الايروتيكية العابرة بجارتي الكوافيرة راهبة، فبقيت أتقلب في الفراش بحثاً عن

مخرج. كيف سأسوّغ لها ارتباطي المفاجئ بامرأة غيرها وهي تحلم بأن أتزوجها؟ قالت لي حين نمت معها أول مرة إن المرأة المندائية تأثم بزواجها من خارج محيط الطائفة، وتُمنع من الرجوع إلى رحابها ثانيةً إن فعلت ذلك، لكنها مستعدة لهذه التضحية إن أنا وافقت. لقد كنت أفكر دائماً في لزوم إنهاء علاقتي بها ذات يوم".

رنّ هاتف كمال صادحاً بموسيقى "لا أتنلانتيدا" لمانويل دي فايا، فتوقف عن الكتابة، ورفع بصره عن الورقة. لاحظ أن الرقم يحمل مفتاح اسبانيا، تلقفه بسرعة ووضعه على أذنه بلهفة. خمّن أن المتصل صديق من مدريد، إلاّ أنه فوجئ بصوت أنثوي مألوف يخاطبه:

– مساء الخير أستاذ، أنا زهراء..

– مستحيل! الرقم الذي ظهر عندي من اسبانيا.

– لماذا مستحيل؟ أنا أكلمك من مدريد.

– يا بختك!

– وصلت مع أهلي قبل أسبوع. أبي عُيّن سفيراً وأنا سأكون مديرةً لمكتبه.

– مبروك... إنها فرصة لإكمال تعليمك العالي.

– سأسجّل في جامعة كومبلتنسه، أليست هي الجامعة التي درستَ فيها أنت؟

– هي بالضبط.

– سأتصل بك في ما بعد، عندي لك مفاجأة.

– لماذا لا تقوليها الآن؟

– لست متأكدةً منها الآن.

– هل تتعلق بك أم بي أنا؟

– سأخبرك بها في ما بعد.

ترك كمال أوراقه على الطاولة وذهب إلى الشرفة، أسند كفيه على متراسها ونظر إلى الفضاء الممتد أمامه من دون تركيز، شغلت كلمات زهراء باله فلم يلحظ خفوت هالة الفضة التي كان يسكبها القمر على الأسطح قبل ساعتين. أزّت رصاصة مرقت من جنبه وارتطمت بالحائط،

فخفض رأسه في الحال، ثم انبطح على الأرض، أخذ نفساً وراح يفكّر فيما إذا كان بإمكانه أن يرفع رأسه أم يزحف على بطنه إلى غرفة نومه.

٩

شعر كمال في اليوم التالي بضغط أنوثة ألماس عليه كالسحر، وتساقط روحها كظلٍّ على نفسه، وأينعت في داخله قناعة بأنها المرأة المناسبة له، خاصةً عندما عرف أنها قارئة جيدة، وتهوى الأدب، ولها محاولات في الكتابة. قالت له عقب أن ملأ يديه الخاويتين من شهدها إنها تحب كتابات لطفية الدليمي وغادة السمان وسلوى بكر، وقد أعادت قراءة قصة الأولى "عالم النساء الوحيدات" عدة مرات، وتحلم أن تصبح كاتبةً لامعةً مثلها.

كان ينوي قبل لقائه الثاني بها أن يسافر يوم الثلاثاء إلى شهربان ليقضي العطلة الصيفية مع أهله، لكنه أجّل سفره من أجلها إلى الشهر التالي. دعاها بعد استيقاظه من النوم وقت الظهر لقضاء سهرة في شقته فوافقت على الفور. سألها إن كانت تشرب قالت إنها تحب النبيذ، فتذكّر أنّ أفضل من يمكن اللجوء إليه لتزويده بزجاجة هو صديقه الموسيقي زهراب هاكوبيان، المتمرس بصناعة النبيذ المحلي. اتصل به الساعة الخامسة عصراً، فوجده منشغلاً، كعادته، في كتابة فصول من كتابه الملحمي "الهولوكوست الأرمني"، الذي باشر بكتابته منذ أربع سنوات ولم ينته منه بعد. ذهب إلى بيته في ساحة الطيران قبيل غروب الشمس. فتحت له الباب زوجته بياتريس بابتسامة كئيبة بدا معها وجهها ممتقعاً شاحباً كقناع للموت. استغرب لماذا فقدت حيويتها وصارت مثل قبّرة تناثر ريشها وجعاً. سارت أمامه بشعرها الأشقر المهمل فلم يكد يميز بين لونه ولون كتفها العاري المغطى بالنمش. أدخلته إلى صالة الضيوف، حيث ما زال هاكوبيان منبطحاً على الأرض، منهمكاً في كتابة ملحمته. وأصرّ، قبل أن يكرمه بالنبيذ، على إسماعه مقطعاً من المخطوطة يعتز به كثيراً. في البدء ضيّفه بكأس على أنغام قطعة موسيقية لآرام خاشودريان، ثم مضى يقرأ، وحين انتهى قال له كمال:

– آلمتني جداً يا صديقي.

– استندتُ إلى سرديات تاريخية: وثائق وشهادات وتقارير ورسائل مدونة.

– رغم أنني لا أميل إلى السرديات الكبرى، فإن التراجيديا التي كتبتها جارحة للوجدان والضمير، ولا أدري كيف سأحتفل الليلة مع صديقتي بعد سماعها؟

تنهد هاكوبيان:

– لا عليك يا صديقي، إن حياتنا كلها تراجيديات متواصلة، ولا تضيّع فرصة فرح نادرة تنتزعها من وسط الخراب.

دوّى صوت انفجار قوي في الخارج، فاهتز البيت وانقطع عنه التيار الكهربائي. قفز هاكوبيان من مكانه إلى النافذة. فتحها على مصراعيها. سمع كلاباً تنبح. رأى أناساً يجرون في اتجاهات مختلفة، وعلى مقربة من جدارية فائق حسن كانت ترتفع إلى السماء غيمة دخان أسود، وبضع حمامات مذعورة خُيّل له أنها فرّت من الجدارية، تاركةً أكف النساء فارغةً.

قال هاكوبيان وهو يخلع بيجامته ليظل بالشورت اتقاءً للحر:

– الصالة ستغدو فرناً بعد قليل. دعنا نخرج إلى الحديقة.

لكنّ كمال ظل جالساً كمن أصيب بالشلل. خجل من أن يرى هاكوبيان انتصاب عضوه، فقال له:

– اسبقني أنت وسألحق بك. أريد أن أستعمل المرحاض.

– بدأنا؟ من كأس نبيذ واحدة؟

– .....

جلس هاكوبيان تحت ظل شجرة رمان ذات أغصان كثيفة ريانة، وبدا واضحاً أنه يعتني بها أكثر من بقية أشجار حديقته. نسمة هواء خفيفة تهب من جهة الغرب، لكنها محمّلة برائحة شواط. جاء إليه كمال بعد أكثر من خمس دقائق وقد زال عنه اهتياجه. قطف رمانةً كبيرةً ذات جلد قرمزي وراح يفركها بأصابعه، فسأله هاكوبيان:

– هل تحب الرمان؟

– كثيراً. في بستاننا أصناف عديدة منه، وأبي يعتني بها مثلما يعتني بأخوتي.

– يُقال إن الناس في العراق القديم كانوا يعتقدون بأن الرمان يزيد القدرة الجنسية، وأظهرت دراسة حديثة أجريت على ذكور الأرانب أن عصير الرمان زاد تدفق الدم إلى أعضائها الجنسية وساعد على انتصابها.

أراد كمال أن يكشف عن ارتباط الانتصاب عنده بأصوات الانفجارات، وأن الرمان سيزيد الطين بلةً، لكنه تراجع لأن هاكوبيان سيدرك حتماً سبب ذهابه إلى المرحاض بعد حدوث الانفجار، واكتفى بأن علق قائلاً:

– هذا يعني أن مفعوله يماثل مفعول الفياغرا.

– فلتخسأ الفياغرا.. اسألني أنا... إنه من الرموز الوطنية المهمة في أرمينيا.. يعبّر عن الخصوبة والكثرة والزواج.

ساد الصمت بينهما.. مرّ بعض الوقت من دون أن يتكلما.. أخيراً خرق كمال الصمت:

– ما أخبار مكتبك الموسيقي؟

ضحك هاكوبيان ساخراً:

– أصبح جزءاً من تراجيديا البلد.

– هل أغلقته؟

– هم أغلقوه إلى الأبد.

– هددوك؟

– ليتهم فعلوا ذلك. فجّروه بقنبلة يدوية، وتركوا ورقةً على الركام حذروني فيها من إعادة فتحه لأن الموسيقى مُنكَر يخالف الأحكام الشرعية.

– الموسيقى مُنكَر! بينما حزّ الرقاب والتمثيل بالبشر وقطع الرزق معروف؟

– اشرب يا صديقي، ليس أمامنا إلاّ أن نترك لهم البلد أو نموت حتى ينتصر الخراب.

– وماذا ستختار أنت؟

– الحياة أولاً. سأهاجر إلى أرمينيا. مالي أنا وأحكامهم الشرعية؟ فلتذهب إلى الجحيم إذا كانت ضد الفرح والجمال.

فكّر كمال في أن يجعل سهرته مع ألماس ذات نكهة شبيهة بنكهة سهرته الأولى مع نسرين. اشترى في طريق عودته، من دكان راهبة، ما ينقصه من مواد لطبخته الإسبانية، وطلب منها أن تعطيه عدداً أكبر من الشموع ليدرأ بها غدر الكهرباء، فوضعت له كل ما تبقى عندها في الكيس، وقالت، وهي تحدق إلى وجهه بعينين زائغتين:

– هل قالوا لك إن الكهرباء ستنقطع أسبوعاً كاملاً؟

ابتسم لها:

– كل شيء جائز راهبة خاتون في هذا البلد.

كزّت على أسنانها:

– خاتون ها؟ إنها نغمة جديدة.

– إذا كانت لا تعجبك سأناديك راهبة خانم.

– يبدو أن مزاجك رائق هذه الأيام، أستاذ كمال!

– تعرفين لماذا؟ يقولون إن الحكومة ستحل جميع الميليشيات.

فغرت فاها:

– ستكون حكومة شريفة لو فعلت ذلك.

– هل ستعيدين فتح صالونك من جديد؟

– وحق الحي العظيم سأفتحه مجاناً طوال شهر كامل.

– استعدي إذن، أنا سأكون أول من يحلق شعره عندك.

– هل تمزح معي؟

– لا تيأسي راهبة، كل طارئ مآله الزوال، عاجلاً أم آجلاً.

قال ذلك وتركها حائرةً، لا تعرف إن كان صادقاً أو يتسلى بتشويش عقلها. ارتقى درجات البناية على عجل، ودلف إلى شقته، وأخذ يفتش في حقيبة الأقراص المدمجة عن قرص الأغاني الذي يضم الألبوم الثالث لأنريكي غونزاليس، لكنه لم يعثر عليه. قال لنفسه "ربما أخذته نسرين معها"، فسحب عوضاً عنه قرصاً لأبيه خوليو.

كان لا يزال أمام كمال وقت طويل لاستقبال ألماس، ففكّر أن يقضيه في إعادة تدوين نهاية القصة التي روتها له نسرين. لم يقتنع بها مطلقاً، شعر بأنها حوّرتها، ورجّح أنها كانت تزور

طليق ماريدا وحدها لتحصل منه على النقود، وتتقاسمها مع ابنته، لذا قرر تغييرها لتكون أقرب إلى الحقيقة، رغم مرارتها:

"أعترف لكَ بأنني ذهبت إليه وحدي أكثر من مرة بحجة أن جُلدران مشغولة بالامتحانات. وفي إحدى المرات وجدته ثملاً، كان ينتظر امرأةً ما تعرّف إليها في نفس اليوم لكنها خذلته. حينما طرقت بابه فتحه على الفور، ظناً منه بأنني تلك المرأة، ففوجئت به يقف أمامي كما خلقه الله... أشحت بوجهي جانباً يملؤني الخجل، وتيبست قدماي فلا أنا قادرة على الانسحاب ولا على البقاء. لم أشعر من قبل بأنني امرأة مثلما شعرت في تلك اللحظة، أول مرة في حياتي أرى رجلاً بعمر أبي في مثل ذلك الموقف.. إلاّ أنه لم تهتز له شعرة، بل سحبني من ذراعي وأدخلني إلى الشقة، ثم طوق خصري من الخلف وسار بي إلى غرفة النوم. حاولت في البداية أن أفلت من قبضته وأهرب فلم أستطع، شدّني إليه بقوة وراح يثرثر حول المرأة التي ضربت له موعداً ولم تأتِ. أغلق الباب بالمفتاح من غير أن يفلتني وقال: "إن كانت تلك الحقيرة قد خذلتني فإن الله لم يخذلني..". أردت أن أصرخ لكني خشيت من الفضيحة، مَن مِن جيرانه سيصدّق أنه كان يحاول اغتصابي؟ سيقولون لي حتماً "ماذا تفعلين إذن في شقة رجل أعزب؟"، لذا فكرت في أن أسايره وأخدعه. قلت: "أريد أن أخدر مثلك أولاً"، فارتدى سرواله بعجالة ورشّ على رقبته وصدره عطراً حاد الرائحة، وهرع إلى الصالة ليعدّ لي كأساً. حين جلست أمامه أخذ يفترسني بنظراته الشبقة، وطلب مني أن أسايره فأخلع قميصي وتنورتي، كما لو أن هاجساً من الشك دهمه بغتةً وأراد أن يختبرني، لكنني تحججت بأنني مازلت خجلةً، ووعدته بأن أفعل ذلك بعد الكأس الثانية. وإمعاناً في تضليله سألته إن كان بإمكاني المبيت عنده، ففتح عينيه على سعتهما من وقع المفاجأة، وقال: "ألم أقل لك إن الله هو الذي بعثك لي ليعوضني عن تلك القحبة؟"، ثم طلب مني أن أقف على قدمي وأدير له ظهري ليتأمل طولي، حسب ادعائه، ورغم إحساسي بأنه كان يهدف إلى شيء آخر فقد استجبت له، فإذا به يمسكني من مؤخرتي بيديه، ثم أخذ يحركهما حركةً دائريةً حول ردفيّ، وشرع يغازلني بكلمات شاذة. لم أتركه يتمادى في حركته، بل سرعان ما افتعلت حاجتي إلى استعمال الحمّام، وخطر لي هناك، وأنا أفكّر في طريقة للتملّص منه، أن سلوكه هذا ربما كان أحد الأسباب التي صدّعت علاقته بماريدا. تعمدت أن أمكث في الحمام وقتاً طويلاً، ربما نصف ساعة أو أكثر، لعله يتعب من المشروب فيغفو، بيد أنه ظل يقظاً، وحين ملَّ من

الانتظار نهض من مكانه، وسمعت بعد لحظات وقع أقدامه وهو يقترب إلى الحمام، سألني إن كنت قد أنهيت حاجتي أم لا، فأخرجت رأسي من شق الباب وقلت له "أكاد أنفجر.. هل عندك حبوب للإمساك؟"، فدفع الباب وهجم عليّ مثل فيل هائج، وقال لي وهو يهز عدته "لا عليكِ.. هذا أفضل علاج طبيعي للإمساك"! ولم يتركني حتى نال مني مراده عنوةً".

ما لا يعلمه الراوي

اسمي الحقيقي ليس ألماس. أبي اخترع لي هذا تيمناً بحي "ألماس" في كركوك، الذي نسكن فيه. أمي كانت الوحيدة في الأسرة تناديني باسمي الحقيقي "تمارا"، لأنها هي التي اختارته لي. وقد أخفيته عن كمال أيضاً، وأردت أن أفاجئه به يوم عقد قراننا.

كنت في أشهري الجامعية الأولى حين نشبت الحرب الثانية. غادرت بغداد إلى مدينتي، برفقة اثنتين من صديقاتي في القسم الداخلي، ظهيرة يوم الأربعاء، السادس عشر من كانون الثاني عام ١٩٩١. لم يكن الحصول على باص أو سيارة نقل صغيرة أمراً يسيراً في مثل ذلك اليوم الملبّد بالرعب. العالم كله، عدا حفنة من المتهورين الحمقى، كان يضع يده على قلبه، وعيناه لا تفتآن تراقبان عقارب الساعة، أو تتطلعان إلى التلفزيون لمعرفة ما سيؤول إليه مصير البلد، إثر انتهاء المهلة التي منحها بوش الأب لسحب جيشنا من الكويت. استنجدت بأحد زملائي في الصف ليحجز لنا تذاكر سفر من محطة القطار، حيث يعمل والده فيها.

وصلنا في الثامنة مساءً، فوجدت ساندر، ابن خالتي جاكلين، بانتظاري (كنا آنذاك نحب بعضنا). وبعد سبع ساعات من وصولنا بدأت الكارثة. ليلتها ظل جميع أفراد أسرتي يقظين، وربما فعل الشيء نفسه ثلاثة أرباع العراقيين المغلوبين على أمرهم.

كانت أمي قد احتاطت للحرب جيداً، فجهزت مطبخها بمؤونة غذائية تسدّ حاجتنا نحو سنة، واشترت مجموعة فوانيس ذات أحجام مختلفة، وخزّنت عشرات الشموع الكبيرة، رغم أن أبي كان يحتفظ منذ مدة بمولدة كهرباء ذات كفاءة عالية، ودفن في حديقة البيت الخلفية عدة براميل بنزين تكفي لتشغيلها شهوراً.

بعد لحظات من بدء الغارة الجوية الأولى على المدينة انقطعت الكهرباء عن الأحياء السكنية دفعةً واحدةً، وشرعت صافرات الإنذار بالزعيق تباعاً، فهرعنا على الفور إلى قبو البيت لنحتمي به. كان واسعاً ونظيفاً بذلت أمي جهداً كبيراً في ترتيبه وتأثيثه طوال أسبوع كامل. ولم تكد

تمضي ساعة حتى توقفت الانفجارات وخيّم السكون على المدينة، لكننا سمعنا فجأةً طرقات على باب الدار، فخرج أخي ياسين مسرعاً، وكأنه كان ينتظر شخصاً سيأتي. عاد بعد دقيقتين ليخاطب أمي وهو يطل برأسه من باب القبو: "إنه جارنا بطرس، جاء يسأل إن كان عندنا فانوس فائض يمكن أن يستعيره"، فقالت له من دون تردد: "أعطه واحداً من المطبخ، واسأله إن كان بحاجة إلى شموع أيضاً". لم أستغرب كرمها مع أبناء جلدتها، فهي رغم زواجها من والدي، ظلت محافظةً على وشائج الرحم والعقيدة التي تربطها بأهلها وأقاربها ومعارفها من المسيحيين، عدا بعضهم الذي نبذها من باب التعصب. لكني خلافاً لها لم أصدّق بأن مَن طرق الباب كان جارنا بطرس، فأنا أكثر واحدة في الأسرة تعرف حركات ياسين وألاعيبه، بل خمّنت أنها إحدى بنات الجيران ممن تربطه بهن علاقة متعة عابرة.

حين رجع إلى القبو متأخراً نحو نصف ساعة كان الجميع غافياً إلاّ أنا، فسألته بهمس شديد:

– كل هذا الوقت حتى تعطي الفانوس لبطرس؟

قال:

– كفي عن فضولك ونامي.. كنا نتحدث عن القصف..

سألته:

– القصف؟.. من كانت معك؟

أجاب:

– قلت لكِ كفي عن فضولك ونامي..

– سأوقظ أبي إن لم تخبرني.

– كانت نسرين.. هل ارتحتِ؟

عند بزوغ الصباح زعقت صافرات الإنذار مرةً أخرى، فحرمتنا من أجمل مراحل النوم. كنت لحظتها غارقةً في حلم فريد، لا علاقة له بالحرب ومآسيها. رأيت نفسي، في مساء خريفي، عند شاطئ بحر لازوردي مشع، مستلقيةً على سرير من رمل دافئ، أراقب سفينةً تختلج فوق الأمواج، وقد بهرتني أضواؤها وهي تقترب شيئاً فشيئاً إلى الشاطئ، وأيقظت في داخلي رغبةً هائلةً في أن أغوص تحت الماء لأصل إليها وأتسلقها بالحبل مثل قرصان. وما كاد زعيق

الصافرات يخمد حتى دوت انفجارات عنيفة في النواحي الشمالية والجنوبية من المدينة. استمرت الغارة أكثر من ربع ساعة، لكننا لم نسمع هدير الطائرات التي تقصف، ففسّر أبي ذلك بأن الأميركان ربما قصفونا بصواريخ بعيدة المدى من البحر، بينما رأى ياسين أن مصدر القصف هو طائرات حربية حديثة تحلّق على ارتفاعات عالية جداً كي لا تطالها دفاعاتنا الجوية، وأخذ يتبجح بمعلوماته، ذاكراً لنا أسماء الطائرات، فوبخه أبي قائلاً: "يا حمار، هذه الطائرات التي ذكرتها مقاتلة وليست قاصفةً". أما أنا فلم يكن يعنيني في ذلك الظرف العصيب نوع الآلة الجهنمية التي تطلق حممها علينا، بل الأذى الشديد الذي سنلاقيه، والدمار الشامل الذي سيصيب بلدنا، وفي رأسي يطن تهديد الأرعن بيكر بإرجاعنا إلى عصر ما قبل الصناعة، وكأننا نحن الذين فوّضنا حاكمنا بأن يرتكب حماقة الغزو!

كنت متعبةً جداً من السفر، فحاولت أن أغفو مرةً أخرى، لكن عينيّ ظلتا مفتوحتين. منذ طفولتي لم أنم على فراش يتوسد الأرض. شعرت بتصلب عظام ظهري وجفاف حلقي. أزحت الدثار عني وشربت قليلاً من الماء، ثم نهضت. ارتقيت درجات القبو إلى الصالة وفتحت الراديو. سمعت الرئيس يلقي خطاباً يتحدث فيه عن غدر الغادرين، ويحث الجيش والشعب على رد العدوان. لم أطق سماع تلك الترّهات فأغلقت الراديو، وأزحت ستارة النافذة الواسعة المطلة على الحديقة لأرى كيف تعكر الحرب صفو الصباح. ألقيت نظرةً إلى صفحة السماء فوجدتها تعج بأسراب من طيور السنونو والحمام البري والزرازير، التي تحلّق عالياً، في تشكيلات غريبة، لكنها شديدة الانتظام، متجهةً إلى الشرق، هرباً من أعمدة الدخان التي تغطي الجهة الغربية من سماء المدينة. فتحت النافذة فلفحني هواء بارد محمّل برذاذ كبشائر المطر، وتناهت إلى سمعي أصوات مضطربة لنساء ورجال يحثون أنفسهم على الإسراع في إنجاز بعض المهمات، كانت بالنسبة لي لغزاً، إلاّ أنني حدست أن لها صلةً بفاجعة الحرب. هرولت إلى الباب لأستطلع الأمر (في الواقع وجدت نفسي مجذوبةً بشكل لا يُقاوم إلى رؤية صورة اليوم الأول من الحرب في وجوه الناس وأثرها في سلوكهم الغريزي).

"يا إلهي! ماذا يحدث؟"

تساءلت مع نفسي، مفجوعةً، حين باغتني مشهد نزوح جماعي رهيب عن الحي. كان الجميع، عدانا نحن وبعض البيوت القليلة التي لا يمتلك أهلها وسائط نقل، يسرعون في إخراج

حقائب سفر وبطانيات وأكياس كبيرة محشوة بالأمتعة من داخل منازلهم ويكدسونها في الصناديق الخلفية لسياراتهم، أو يربطونها بالحبال فوق حمّالاتها، فيما كان أؤلئك الذين جهزوا أنفسهم للنزوح أبكر من غيرهم، استعجالاً للخلاص، يغادرون الحي بفوضى عارمة (لكن إلى أين؟ لا أدري)، كما لو أن سيلاً من الحمم البركانية بالغ السرعة ينحدر صوبهم من مرتفعات المدينة.

كان بيت خالتي جاكلين لا يبعد عن بيتنا كثيراً، وقد آثروا البقاء مثلنا في المدينة. عرفت ذلك من ساندر حين جاء ليطمئن علينا. قال إن أهله سيحتمون بالكنيسة التي يرعاها والده الخوري، لأنها مكان آمن، إلى أن يفرجها الله، ودعانا إلى الالتحاق بهم. أمي تحمّست للفكرة، لكن أبي رفض، قال لها:

– أنا لن أبرح بيتي، اذهبوا أنتم.

فنظرت إليه أمي نظرة شك، وكأنها حدست أنه يضمر أمراً ما، وردت بجرس فيه إصرار:

– لن أتركك وحدك.

ثم التفتت إلى ساندر، وقالت له:

– سلّم على أمك وقل لها خالتي لا تريد أن تترك بيتها. خذ معك الأولاد والبنات إذا لم يمانع زوجي.

لفظت الكلمة الأخيرة بتشديد واضح على حروفها، وكأنها أرادت أن تشعِر أبي بأنه ملكها وحدها، فضحك بصوت عال، وقال بدعابة:

– إنها فرصة كي نستعيد أيام شبابنا يا ماريا. سنظل وحدنا في هذا القبو الذي يشبه جناحاً في فندق خمس نجوم، ولتذهب أميركا وطائراتها وصواريخها إلى جهنم.

رافقنا ساندر إلى بيتهم، حاملين ما نحتاج إليه من ملابس وبعض الكتب، ومن هناك قصدنا إلى الكنيسة بسيارتَي خالتي وزوجها. كان يلتصق بها منزل ذو خمس حجرات واسعة، احداها في الطابق الثاني يستخدمها الخوري مكتباً له، فاتخذنا ثلاثاً منها للنوم وواحدةً صالةً للجلوس.

عند الظهر تعرضت المدينة مجدداً إلى قصف استهدف معسكرات الجيش الكبيرة، وبعض المقرات الحكومية، وقواعد الصواريخ المضادة للطائرات، وحقول النفط في بابا كركر، لكن بعض الصواريخ سقطت على أحياء سكنية قريبة إلى تلك المنشآت، فقتلت عشرات الناس، ودمّرت

منازلهم. كانت الأخبار تأتينا عبر الهاتف، الذي لم ينقطع حتى تلك اللحظة، وكنا نحاول التأكد من صحتها بالصعود إلى الطابق الثاني، حيث تتسنى لنا رؤية أعمدة الدخان عبر النوافذ.

كان وجودي برفقة ساندر فرصةً لا تُعوَّض. وبدت لي الحياة في ذلك المكان جميلةً جداً، رغم بشاعة الحرب. أخذنا أنا وإياه نتطارح الغرام بين حين وآخر من دون رقيب، فقد كان والده يقضي وقتاً طويلاً في مكتبه، يطالع الإنجيل، ويراجع كتباً كثيرةً، ويكتب مخطوطةً قال إن موضوعها يدور حول الكأس المقدسة بين الأدب والليتورجيا الرمزية. وحين سألته عن معنى ذلك أوضح لي أن الكأس المقدسة ترمز في المسيحية إلى النعمة الإلهية والكمال الداخلي الذي طالما بحث عنه الناس، وهي تتطلب مقومات حياة داخلية نادراً ما تجتمع في شخص واحد. أما الليتورجيا فقال إنها كلمة يونانية معناها الحرفي عمل الشعب، أو العمل الجماعي. وكان أخي ياسين يغض النظر عنا كي لا أبوح لأبي بمغامراته مع فتيات الحي، في حين كانت خالتي جاكلين، مدرسة الفن المتقاعدة، منهمكةً معظم الوقت، خلال النهار، بمشاغل منزلية، تساعدها أحياناً ابنتها لورا. وحتى لو ضبطتنا أنا وابنها في موقف محرج فإنها لن توبخنا لأنها على علم بعلاقتنا، وتتمنى أن أكون كنةً لها. ولم أكن أعلم أنها تخطط لجعلي مسيحيةً مثلهم. في البداية أخذت تحبب لي، خلال الأماسي، مراسم الزواج الكنسي، وتغريني بجمال الطقوس والتقاليد المسيحية في المناسبات الاجتماعية والدينية، مثل طقس المعمودية، وغسل الخطايا، وحرق البخور، وعادة صبغ البيض وإهدائه في عيد الفصح. ثم شرعت تدعوني إلى ترديد أشعار وترانيم خلاصية وابتهاجية باللغة السريانية.

لم أنقطع عن الذهاب إلى بيتنا إلاّ مرةً واحدةً، طوال الأسابيع الثلاثة التي مكثناها في الكنيسة. كان والد ساندر يوصلنا تارةً، وخالتي جاكلين تارةً أخرى للاطمئنان على أمي وأبي كلما سنحت لنا الفرصة. في المرة التي تخلّفت فيها عن الذهاب برفقة خالتي، وكان ذلك بإلحاح من لورا كي أساعدها في أمر لا يقبل التأجيل، حسب قولها، عرض عليّ الخوري أن أعتنق المسيحية إن أردتُ الزواج من ابنه، ومهّد لذلك بعظة طويلة قال فيها: "منذ أن وُجد الإنسان على الأرض تكاثر عن طريق الزواج بين الرجل والمرأة. وقد تكونت الخلية البشرية الأولى من الأسرة التي هي ثمرة هذا الزواج. إن هذه العلاقة في عُرفِنا المسيحي هي عهدٌ مُقدّس بين الرجل

والمرأة يربطه الله برباط مقدّس لا ينحل إلا بموت أحد الطرفين، لذلك قال لنا السيد المسيح "فيصيران كِلاهُما جسداً واحداً، وما جمعه الله لا يُفرّقه إنسان". وعليه فإن الارتباط الزوجي هو مقدّس للغاية، وعلى كل زوجين أن يُدركا ذلك ويعملا دائماً من أجل تقوية هذا الرباط وهذه القُدسية. ولا تستقيم العلاقة الزوجية إلاّ إذا قامت على عاطفة الحب، وهي كما تعرفين أقوى من كل شيء، وبها نتغلب على المصاعب مهما كبرت.. ومن بين هذه المصاعب الفارق الديني.. وقد اقتضى العرف أن يكون الأبناء على دين آبائهم، وكما يفرض زواج الرجل المسلم اتّباع شروط دينه الإسلامي، فإن زواج المسيحي من مسلمة تطبّق عليه شروط سر الزواج المسيحي...".

قلت:

– أبونا، أنا لست متدينةً، لكني أعرف أن الإسلام لا يُلزم زوجة المسلم إذا كانت كتابيةً بأن تصبح مسلمةً، بل يشترط عليها أن تتعهد بتربية الأولاد تربيةً إسلاميةً.

– إذا بقيتِ على دينك كيف ستربين أحفادي تربيةً مسيحيةً؟

– يقول ساندر إن الكنيسة لا ترغمني على أن أصبح مسيحيةً..

نهض الخوري من مكانه واستدار إلى مكتبته وسحب منها كتاباً مجلداً، ثم فتحه وقلّب بعض صفحاته وقال:

– ساندر لا يفهم هذه الأمور.. إنه مغرم بك، ولا تسيّره إلاّ عاطفته، بينما أنا أفكر فيما هو أبعد.

– أبعد من مبادئ الكنيسة؟ لقد ذكرتَ بنفسك أن الأبناء يكونون على دين آبائهم.

أطرق رأسه برهةً، ثم أعاد الكتاب إلى الرف، وقال من دون أن يلتفت إليّ:

– اسمعيني ألماس، قناعتي الشخصية أن الزوجة هي التي تصبغ البيت كله بصبغتها، وتربي الأبناء على طريقتها، والزوج لا يقدّم ولا يؤخّر، فهو في الأسرة مثل شرابة الخرج كما يقولون.

– أبونا، لماذا لا تفكّر بتضحيتي أنا؟

التفت إليّ وسألني بشيء من الصرامة:

– أية تضحية؟

ترقرقت عيناي بالدموع، فمسحتها بكفي وأجبت متنهدةً:

– الناس أبونا.. الناس سينبذونني، وسأواجه معاناةً شديدةً لأن رجال الدين عندنا لا يحلون زواج المسلمة من غير مسلم.

– إذن من الأفضل لك أن تتعمدي.

– أبونا، أنا وأمي بالكاد أقنعنا والدي.. وأنت تطالبني الآن بأن أغيّر ديني؟

– أنت حرة.. لن تتزوجي ساندر.

صدمني قراره فقلت:

– أرجوك لا تكن قاسياً.

– لست قاسياً. أنا خوري أرثوذكسي ويصعب عليّ أن أزوّج ابني فتاةً غير معمّدة.

صمت برهةً ثم أضاف:

– ما أومن به هو أن المسيحي، سواء أكان رجلاً أم امرأةً، إذا تزوج خارج الكنيسة، وخارج الإيمان المسيحي فإنه يعيش في زنى، ومن ثم خرج عن قوانين الدين المسيحي والكتاب المقدّس، ولا علاقة للمسيحية به على الإطلاق، لأن الزواج في المسيحية له معنى أعمق وأقوى بكثير من معناه في الديانات الأخرى.

– أبونا، اعذرني لم أكن أتوقع أنك متعصب إلى هذه الدرجة.

أدار ظهره لي وقال:

– لست متعصباً، أنا حريص على معتقدي.

ساد صمت عميق بيننا، ففكرت في أن مواصلة الحديث مع الخوري بالطريقة التي اتبعتها ستكون بلا طائل، وقررت أن أفضل ما يتوجب عليّ فعله هو كشف ما جرى بيني وبين ساندر خلال الأيام التي قضيناها في ذلك المكان وليحدث ما يحدث، فقلت له بعد أن استجمعت شظايا شجاعتي:

– أبونا، مادمت مصراً على موقفك فإنني مضطرة إلى إفشاء سر لن يسرّك. لقد عاهدني ساندر بالزواج حتى لو تخلى عن دينه، لأننا..

استدار إليّ وقد طفحت على وجهه أمارات الغضب، وقاطعني بصوت منفعل:

– سأقطعه إرباً إرباً إن فعل ذلك.

فقاطعته بدوري قبل أن يكمل تهديده:

– لكنني لم أطلعك على السر بعد.

– وهل يوجد سر أشد مرارةً من هذا؟

– نعم أبونا. لقد حدث بيني وبين ساندر ما يحدث بين الأزواج.

انتفض الخوري واقفاً جاحظ العينين، وضرب بقبضة يده على سطح مكتبه، وصاح مزمجراً:

– زنيتما هنا جنب الكنيسة؟ عليكما اللعنة. أخرجي من هنا. اذهبي إلى أي طبيب أو شيطان كي يرتق خطيئتك، ولا تريني وجهك مرةً ثانيةً. أما ساندر فسأحرمه من بركاتي وحضور الصلوات، وستكون عقوبته أبديةً.

جمعت أغراضنا، أنا وأختي داليا وأخي مهنّد، وعدنا إلى البيت. قلت لأبي، حين سألني عن سبب عودتنا، إننا لم نعد نطيق البقاء في الكنيسة. لحق بنا ياسين في اليوم التالي، وكان قد علم برجوع أسرة نسرين من القرية التي لجأت إليها. ومن يومها قُطعت علاقتي بساندر، وأصبحنا لا نلتقي نهائياً. أنا أنهيت دراستي الجامعية وتزوجت، وهو أقنعه والده بالاعتراف والتوبة، ثم أرسله إلى أحد الأديرة ليعتزل فيه، ويسلك طريق االرهبنة، ويستبدل شهوة محبة العالم بشهوة محبة المسيح وخلاص النفوس، كما قالت خالتي جاكلين.

١٠

كان النهار آخذاً بالأفول حين خمّنت ألماس أن سهرتها مع كمال تلك الليلة ستطول كثيراً، ربما إلى الشفق، فقررت أن تأوي إلى الفراش لتأخذ قسطاً من النوم. أغشتها إغفاءة، بعد ربع ساعة، فرأت في نومها أنها تهبط إلى شقة كمال، متنكرةً بعباءة رجالية وشماغ، لكن العتمة الكثيفة في البناية جعلتها تتلمس درجات السلّم بصعوبة. وبينما أرادت أن تمد يدها لتضغط على جرس الباب لمحت راهبة ترتقي درجات السلّم حاملةً شمعةً صغيرةً تكاد تذوب، فواصلت النزول لتشعرها بأنها ذاهبة إلى الطابق الأرضي. لم تتعرف إليها راهبة حين صارت أمامها، لكنها ابتدرتها بجرس خائف:

– لعن الله الكهرباء، كيف استطعتَ يا أخي أن ترى طريقك من دون ضوء؟

شعرت ألماس بالحرج فاضطرت إلى الرد عليها:

– راهبة أنا ألماس.

اندهشت راهبة:

– ألماس؟ أخذك إبليس! لماذا أنت متنكرة هكذا؟

– نزلتُ أشم الهواء أمام باب البناية.

– ملعونة، أتخشين أن يخطفوك؟

– الحذر ضروي. وأنت إلى أين ذاهبة؟

– أريد أن أطلب بعض الشموع من فيفيان. هذه آخر شمعة في البيت، وابني كسر زجاجة الفانوس.

– اعذريني أنا لا أستخدم الشموع.

– كنت أبيعها في الصالون، أقصد في الدكان، لكنها نفدت. الناس يستهلكونها مثل الخبز. لعن الله الحكومة على هذه المصيبة.

– .....

– ماذا نفعل؟ هذا قدرنا.

– .....

– رائحة عطرك تجنن، كأنك ذاهبة إلى سهرة. ما اسمه؟

– شانيل.

– شانيل؟ ما أروعه! كنت استخدمه قبل عشرين عاماً.

–.....

غابت راهبة بضع دقائق ثم هبطت حاملة شمعتين كبيرتين. دفعها فضولها إلى مواصلة الحديث مع ألماس، لكنها لم تجدها أمام الباب. أرسلت بصرها إلى عدة جهات فلم تقع عيناها على أثر لها. راودها هاجس بأنها كذبت عليها وخرجت مع أحدهم، وإلاّ أين اختفت؟ "شكوكي إذن كانت في محلها؟ من أين لها كل هذا المال الذي تسدد به إيجار الشقة، وتشتري العطور الفاخرة التي تملأ رائحتها البناية؟ لو كان عندها أهل ينفقون عليها لما تركوها تعيش وحدها...".

– راهبة، هل تبحثين عن شيء؟

باغتها صوت ألماس من بعيد، فجفلت وارتدت إلى الخلف، وهي تردد مع نفسها:

– باسم الحي العظيم! أيها الأصفياء والكاملون، صونوا أنفسكم من الغش والإثم والزور، والكذب والزيف والشرور، واتقوا الدجل والإفك والضلالة، والفتنة والقسوة والجهالة... صدق الحي المزكّى.

ثم ركزت نظرها إلى الجهة التي انبعث منها الصوت، جهة الرصيف الثاني للشارع حيث تقع نخلة الواشنطونيا، فرأت منظراً مهولاً لا يُصدَّق، شيئاً فظيعاً يستحيل وجوده خارج عالم الكوابيس، وأخذت تفرك عينيها لتتأكد من أنها في حالة صحو. كان المنظر يتبدى هكذا: غدت النخلة شجرةً عملاقةً، وجذعها المكسو بالحراشف أضخم من ناطحة سحاب، وتاجها لا يُرى بالعين المجردة في سماء حالكة، وسعفاتها المتدلية بالآلاف تغطي أسطح البنايات والمنازل على امتداد البصر. كان الفضاء تحتها خافت الضوء إلى درجة يصعب فيها تمييز ملامح أحد، لكن راهبة خيّل لها أنها لمحت ظلاً باهتاً يطل ويختفي خلف جذعها، واستغربت من زوال الأسلاك الشائكة التي كانت تحيط بها. وضعت الشمعتين اللتين استعارتهما من فيفيان في جيب ثوبها واجتازت الشارع بسرعة. تركت مسافةً بينها وبين الظل. رأت جسداً آدمياً يقف وحده في العتمة بشكل

مريب، ويسند ظهره إلى النخلة. تريثت هنيهةً في مخاطبته كي يتسنى لها التحقق ما إذا كان لألماس أم لشخص آخر، إلاّ أن الجسد سرعان ما تحرك صوبها فتأكد لها، حين سقط عليه ضوء شاحب لمصباح عمود الكهرباء، أنه لألماس. قالت:

– أهذه أنت؟ لقد أرعبتني.. ماذا تفعلين هنا؟

أجابت ألماس:

– ألم أقل لكِ أريد أن أشم الهواء؟

– قلتِ أمام الباب وليس تحت هذه الكارثة...

– سمعت أن للنخلة رائحة في الليل تختلف عن رائحتها في النهار.

– آه منك يا أم الرائحة! أخشى أنك جئت تبحثين عن رائحة رجل فيها.

– وما علاقة النخلة برائحة الرجل؟

– لا أدري، لكني سمعت الترميذا في إحدى المرات يقول إن العنصر الذكري الذي نسميه سيندركا هو النخلة رمز التكاثر والثبات.

– ومن يكون الترميذا؟

– إنه رجل الدين عندنا.

– وماذا تسمون العنصر الأنثوي إذن؟

– نسميه إينا، وهو عين الماء.

– النخلة عندنا على العكس منكم عنصر أنثوي، ولذلك نناديها بعمّتنا النخلة.

– يا لك من بلهاء.. أتسمين هذا الوحش عمّةً؟

– رائحتها غريبة جداً.

– ربما تكون شجرةً سامةً. إنها تجثم على صدور الناس وتخنقهم. لكن أين الأسلاك التي وضعوها لحمايتها؟

– لم تعد بحاجة إلى أسلاك. هل كنتِ تبحثين عني؟

– أردت فقط أن أطمئن عليك.

– .....

– هل ستظلين واقفةً جنب هذه البلية؟ لماذا لا تأتين معي كي نتحدث في البيت؟

– لا، سأعود بعد قليل إلى شقتي.

– ألم تضجري من الوحدة؟

– اعتدتُ عليها.

– أنت حرة، لكن احذري.

– .....

شعرت راهبة بأن ألماس لا تطيقها، أو أنها تريد إبعادها عن المكان حتى لا تراها حين تأتي السيارة التي ستقلها. تركتها وخطت باتجاه البناية. وضعت قدميها في منتصف الشارع فباغتتها سيارة مسرعة، توقفت أمامها وسدت عليها الطريق. ورغم ارتباكها وهلعها حاولت أن تتفاداها وتهرب من خلفها، إلاّ أن رجلين ملثمين نزلا منها في لمح البصر، وأمسكاها من ذراعيها ودفعاها إلى داخل السيارة. حدث الأمر أمام عدد قليل من المارة الذين يقطعون الشارع جيئةً وذهاباً. صرخ بعضهم شاتماً، وغمغم بعضهم الآخر بعبارات أسف واستغراب. أذهل الموقف ألماس فعجزت عن التفكير في أي شيء عدا في أن تهرع إلى كمال. لم تستطع، وهي تلهث وترتعش وتنزع الشماغ من رأسها، أن تنقل له الصورة مثلما رأتها، فاحتضنها كمال ولاذ بالصمت.

بعد قليل استعادت هدوءها، وأزاحت العباءة عن جسدها، وسألته:

– هل تعتقد أنهم سيغتصبونها؟

– حتماً، لكنها ستعود.

– متى؟

– الليلة أو غداً.

استفاقت ألماس من النوم بعد ساعتين على رنين جرس الباب. لكنها قبل أن تفتحه أزاحت ستارة النافذة وألقت نظرةً خاطفةً إلى الشارع، فوجدت النخلة على حالتها ثاويةً في مكانها، لم يتغير فيها أي شيء، يتكئ على أسلاكها بضعة شبان لهم سحنات غامضة، ويرتدون أزياء غريبةً. كان الزائر جارتها ساهرة، التي تقيم في الطابق الخامس. جاءت إليها لتأخذ مشورتها حول أمر ما، لكن ألماس لم تستطع تقديم المشورة لها في الحال، بل طلبت منها أن تمهلها يوماً أو يومين.

ما لبث كمال أن غطس في السرير، مرة أخرى، بعدما ودع ألماس صبيحة اليوم التالي. كانت عيناه منطفئتين، وجسده متكاسلاً، فأحاط الوسادة بذراعيه وحاول أن يغفو، لكنه تذكّر حلم ألماس الذي روته له لحظة دخولها إلى الشقة، وأخذ يتقلب في الفراش، متأرجحاً بين الرغبة الشديدة في مواصلة النوم وسطوة رموز ذلك الحلم على رأسه. ظل على هذه الحالة نحو نصف ساعة ثم غفا، إلاّ أنه سرعان ما وجد نفسه، أيضاً، فريسةً لحلم مزعج انتزعه من عذوبة النوم. رأى نفسه مرتدياً دشداشةً بيضاء، ونسرين موثقة بحبل سميك إلى جذع نخلة الواشنطونيا. كانت عاريةً تماماً وجسدها مزرقاً كجثة متروكة، يتوزع حولها بضعة جنود مارينز يدخنون بشراهة، وكلما انتهى أحدهم من تدخين سيجارته أطفأها في موضع ما من جسدها، تارةً بين شفتيها، وأخرى في حلمتها، وتارةً في فرجها، فتصرخ المسكينة من الألم بصوت ذي رنين يتردد صداه في الفضاء كصوت يخرج من بئر، وتضرب رأسها على جذع النخلة ضربات متتاليةً حتى ينزف منه الدم. لم تكن ثمة حركة في الشارع سوى الحركة التي تبعثها الريح في أغصان الشجر، وقرقعة المخلفات المعدنية على الأرصفة، وكأن المدينة تحت حذر تجوال، والسماء ملبدة بسحاب أسود ثقيل ينذر بحدوث عاصفة في أية لحظة.

كان المشهد يجري أمام كمال وهو متسمّر خلف قضبان متقاطعة تسد الواجهة الأمامية لصالون راهبة، ويلف حول خصره قطعة قماش خضراء، ويضع في إصبعه خاتماً من الذهب بحجر الياقوت الأحمر، بيد أن المكان كان يخلو من أي ملمح لصالون حلاقة، إنه يبدو مثل سقيفة مصنوعة من القصب، في العمق منها سرير مزدوج تجلس راهبة على حافته في ثوب عرس، وتضع في إصبعها خاتماً من الذهب بحجر الفيروز، وفي الزاوية اليمنى سرير مفرد يهجع عليه ابنها غضبان مشلولاً، وعلى مقربة منه يقف رجل ذو لحية بيضاء طويلة بهيئة رجل الدين المندائي "الگنزفرا"، حاملاً بيده كتاب "القلستا")*(. بعد لحظات يطلب الرجل من كمال أن يجلس على السرير ويلصق ظهره بظهر راهبة، ويبدأ بقراءة بعض الأدعية، ثم يقوم بضرب رأسيهما ضرباً خفيفاً سبع مرات.

)*(كتاب تراتيل طقوس الزواج عند المندائيين.

أستيقظ كمال من النوم بعد الظهر على صوت انفجار بعيد، تطلّع إلى سقف الغرفة وجدرانها كما لو أنه يراها أول مرة، ثم رفع رأسه عن الوسادة وحدّق إلى نفسه في مرآة الخزانة، فشعر بما يشبه الكآبة، وأخذ يفكر في الخيط الذي يربط بين حلمه وحلم ألماس فلم يمسك إلاّ بخيط نخلة الواشنطونيا، وقال في خلده "ما أزعج أن أنام وأنا في منتهى السعادة، وأصحو لأجد نفسي فريسة للكآبة! لا شك في أنها حماقتي أنا".

بعد انتهائه من شرب قهوته أراد كمال أن يبدد كآبته بتصفح كتاب ما. تذكّر أنه قرأ قبل أسبوع صفحات من "أسير عاشق" لجان جينيه، فرغب في مواصلة قراءة صفحات أخرى. استوقفته في الربع الأول من الكتاب فقرةٌ يقول فيها: "يختلف ورق اللعب العربي عن هذا الذي يستخدمه الفرنسيون والإنجليز: إرث الإسلام المحفوظ في أصابع الصغار الذين يلعبون لعبة "الروندة" أو التدويرة". لم يفهم ماذا يقصد جينيه بـ "لعل العربي اليوم إسبانيا"، فأعاد الكتاب إلى مكانه وجلس إلى الطاولة، وشرع يكتب:

"لم تأتِ نسرين صباح اليوم التالي كما اتفقنا، انتظرتها حتى الظهر ثم استنجدت بسلام لأحصل منه على رقم تلفون بيت ماريدا. اتصلت بها أربع مرات خلال أقل من ساعة، لكن القوّادة كانت هي التي ترد في كل مرة فأضطرُّ إلى الادعاء بأنني أخطأت في طلب الرقم. أخيراً يئستُ، فألصقتُ ورقةً على باب الشقة وذهبت إلى مقهى الشابندر في شارع المتنبي. كنت على موعد في الساعة الواحدة مع صديق من كركوك افتقدته منذ مدة طويلة، يكتب قصائد نثر ما بعد حداثية، كما يقول، باسم سنحاريب (اسمه الحقيقي إيشو عوديشو)، لكنّ قصائده قلّما كانت تجد من ينشرها في الداخل، فيلجأ إلى إرسالها إلى مجلات تصدر في الخارج.

لم نعثر في المقهى على أريكة شاغرة، فاضطررنا إلى التطفّل على واحدة يجلس عليها شخصان لا نعرفهما، لكن يبدو من النقاش الخافت المحتدم بينهما أن ثمة مشكلةً ماليةً يريدان تسويتها بطريقة أو بأخرى، ولم يكن بإمكانهما المضي في نقاشهما بحضورنا، فتطلعا إلينا باشمئزاز وغادرا المقهى بعد دقائق.

كان المكان يضج بمختلف الناس: رجال عابسين طحنتهم الحياة يرتشفون استكانات الشاي والحامض من غير تلذذ، وشباب يمصون الأراجيل وينفخون دخانها بخيلاء وهيام، وأدباء

وصحفيين وفنانين، يستعرض بعضهم آخر ما قرأه، أو ينوي كتابته، ويقارن بعضهم الآخر بين أدب الداخل والخارج مقارنات يمتزج فيها الجد بالنقمة، والحسد بالسخرية، وينهمك عدد قليل منهم في قراءة عناوين الصحف، وتصفح بعض الكتب التي اقتناها من البسطات، وتسمع هنا وهناك من يستغيب كاتباً أو رساماً، أو يلقي نكتةً جرى تحريفها، أو يعلن عن حصوله على دعوة إلى مهرجان ثقافي أو ندوة أدبية في الخارج، أو يسعل، أو يتمخط بصوت عالٍ دونما مراعاة للّياقة. تضايق سنحاريب من سلوكهم فأراد أن يشغل نفسه عنهم. أخذ يتطلع إلى جدران المقهى التي غطتها عشرات الصور لمباني بغداد القديمة وجسورها وملوكها وشخصياتها في الثلاثينيات والأربعينيات، وكأنه يرى المكان أول مرة. وفجأةً استوقفته صورة قارئ المقامات العراقية رشيد القندرجي، فقال:

– هل سمعت ذات يوم رشيد القندرجي؟

– مرةً أو مرتين.. لماذا؟

– أتمنى أن ينبعث الآن من قبره ويغني في المقهى كما كان يفعل قبل ثمانين سنة. الله كم أحبّ أغنيته "عفاكِ عفاكِ"، هل سمعتها بصوته؟

– لا، سمعتها مرةً بصوت يوسف عمر.

– أتذْكرُ كلماتها باللهجة الموصلية؟

– لا، ماذا تقول؟

– تقول:

عفاكِ عفاكِ على فند العملتينو

أنا اتعبتو وأنا اشقيتو وعلى الحاضر أخذتينو

قلت مستغرباً:

– أي ارتداد هذا؟ من مابعد الحداثة إلى الكلاسيكية؟

– أليست أفضل من ثرثرة هؤلاء النمامين؟

عدت مساءً إلى البيت فوجدت عند مدخل البناية غضبان ابن جارتي راهبة الكوافيرة بانتظاري ليخبرني بأن ضيفتي مع أمه في الصالون، وأضاف متسائلاً:

– هل هي خطيبتك؟

قلت:

– هذا السؤال من اختراعك أم من اختراع أمك؟

قال:

– سمعت أمي تسألها.

– وبماذا أجابتها؟

– قالت إنها قريبتك.

– حسناً فعلت.

– إنها تحمل حقيبة، هل ستقيم معك؟

– وهذا السؤال من اختراع أمك أيضاً؟

– لا، أنا أسأل.

– أنت لا شأن لك، هيا نادها بسرعة وقل لأمك إنها ابنة عمي.

أعلمتني نسرين ونحن ندلف إلى الشقة أن جارتي أبدت غيرةً كبيرةً منها، وألمحت لها بأنها، أي جارتي، تستلطفني كثيراً، لكنني رجل نرجسي تشغل حياتي أشياء كثيرة غير المرأة، فحاولتُ أن لا أعير الموضوع أهميةً، لذا حسمته بردٍّ مقتضب: "إذا كانت تعني بالمرأة نفسها فأنا حقاً تشغل حياتي أشياء كثيرة غيرها"، ثم سألتها عن سبب تأخرها، فقالت إن ماريدا جنّ جنونها ليلة أمس لأنني انفردت بها في حفلة الأناضولي، وهددتها بالقتل إن حاولت الاتصال بي، ولذلك لم يكن بمقدورها أن تجمع أغراضها وتترك المنزل، بل انتظرتها حتى تغادر إلى مزرعة مسؤول كبير أرسل في طلبها لأمر طارئ.

كنت أرغب في معرفة أشياء كثيرة عن حياة نسرين، وخاصةً قصة أُسرتها، لكنها فضلت تأجيل ذلك إلى وقت لاحق. في الليل أعددت لها سهرةً بسيطةً حاولت أن أجعلها شبيهةً إلى حد ما بسهراتي في مدريد.. قارورة نبيذ معتق كنت أحتفظ بها منذ مدة طويلة.. بابيلا الدجاج المزينة بشرائط الفليفلة والبازلاء.. الألبوم الثالث لمغني البوب أنريكي ايغليسياس Cosas del Amor "أشياء تتعلق بالحب". وبعد أن أتينا على قارورة النبيذ، وانتهينا من جولتنا الأولى على الأريكة، شرعت نسرين تروي قصة نزوح أسرتها إلى بغداد قبل اندلاع الحرب مع إيران بأشهر.

بدت لي القصة مفبركةً أيضاً، لكني لم أستطع أن أتخيّل وقائعها الحقيقية، فسكتّ على مضض وسألتها:

– هل تتصلين بأهلك بعد رجوعهم إلى أربيل؟

– قليلاً، لم أرهم منذ سنوات. أخي دلير يرسل لهم النقود من ألمانيا، وأختي نازنين تزوجت وغادرت مع زوجها إلى السويد.

– ألا تحلمين أنت أيضاً بالهجرة؟

– بلى، ولكن من يحقق لي هذا الحلم؟

شعرت بأنها تعنيني أنا بالذات، فبقيت صامتاً وكأنني لم أسمع شيئاً".

١١

تظاهر كمال، وهو يدلف إلى شقة فيفيان، بأنه لا يعرف شيئاً عما جرى لها، ويريد أن يتبين منها جلية الأمر. كان الهلع قد خفّ عنها بعض الشيء، لكنها ما زالت شاحبة الوجه، وصوتها يشوبه قليل من الإنهاك، أو لعله الاضطراب. روت له واقعة هجوم المسلحين على الكنيسة بالتفصيل وكأنها راقبت حدوثها من سطح دار أو نافذة قريبة. وكي تزيد من وقعها في نفسه أخذت تضفي عليها سيلاً من الخواطر المؤثرة. حين انتهت من روايتها قالت بأسى:

– لم يبق لنا مكان في العراق. إنهم يريدون اقتلاعنا من جذورنا.

قال كمال غاضباً:

– لن يستطيعوا... إنهم عصبة حثالات سيسحقها الزمن..

– الخوري بنيامين يقول الكلام نفسه، إلاّ أنني خائفة، كيف أجرؤ على الذهاب إلى الكنيسة مرة أخرى؟

– تتحدينهم وتذهبين. أنا سأرافقك كل أحد وأمكث معك.

– لكنك مسلم.

– ها قد عدنا إلى الأسطوانة نفسها، فيفيان إن كل دور العبادة عندي سيان، الكنيسة والمسجد والمعبد والمندي... ولا يضيرني وجودي مع أصحابها لحظة تعبدهم.

– لكنك تخاطر بحياتك، قد يقتلونك بتهمة الردة.

– غريب أمرك، لست نجماً أو زعيماً حتى يعرفني الجميع؟

أطرقت فيفيان رأسها ولزمت الصمت، ثم نهضت واتجهت إلى المطبخ. عادت بعد لحظات وقالت بحزم:

– خير لي أن أهاجر، ثلاجتي فارغة ولا أستطيع الذهاب إلى السوق.

– إلى أين تهاجرين؟

– إلى أي مكان في العالم.

– وهل تستطيعين أن تتركي الخوري بنيامين؟

ازدردت فيفيان لعابها بصعوبة ولم تُحر جواباً، فقال كمال:

– دعكِ من هذه الأوهام، هيا نذهب إلى سوق الكسرة لتحشي ثلاجتك.

ظلت فيفيان مترددةً بعض الوقت، ثم اتجهت إلى زاوية النور في الصالة، حيث ينتصب على الرف تمثال صغير لمريم العذراء داخل كأس فضي، يشبه الأيقونة الكازانية، وفوقه مباشرةً على الجدار أيقونة كبيرة للمسيح، وأمامه قنديل زيت وشمعة وبخور وبعض الزهور. وقفت أمام الرف وأشعلت الشمعة وطفقت تصلي وتترنم بلغتها الآشورية. حين انتهت التفتت إلى كمال وقالت:

– سأخرج معك رغم أنني مازلت خائفةً.

– لا تخافي، ستشفع لك العذراء.

– انتظرني إذن سأغير ملابسي.

دخلت فيفيان إلى الغرفة وأغلقت الباب وراءها، لكن كمال سرعان ما سألها بصوت عالٍ:

– هل ستضعين حجاباً على رأسك؟

أجابته:

– أنسى نفسي ولا أنساه.

عادت فيفيان بعد دقائق إلى الصالة، فبدت لكمال بحجابها الخمري، الذي لم يسبق أن رآه على رأسها، مثل دجاجة هرمة. قال:

– شيء مضحك حقاً، مسيحية مثلك ترتدي حجاباً في الشارع رغماً عنها، أي ديمقراطية هذه؟

– نحن اعتدنا على ارتدائه في الكنيسة فقط.

– رحم الله الزهاوي.

– اليوم كانت ألماس أيضاً تتحدث عنه بإعجاب.

– تصوري أنه نادى بأعلى صوتٍ في بداية القرن الماضي:

أسفري فالحجاب يا ابنة فهرٍ

هو داءٌ في الاجتماع وخيم

كل شيء إلى التجديد ماضٍ

فلماذا يُقرّ هذا القديم؟

– ماذا نفعل؟ هذا قدرنا. صرنا نعود إلى الوراء مثل بول البعير.

– بل أميركا هي التي قدّرت ذلك.

منذ الأيام الأولى لاستئجار كمال شقته في شارع المغرب أخذ يتبضّع من سوق الكسرة، وفيه تعرّف إلى الشيخ مجيد مثقال، بائع الكاهي والقيمر، الذي يحفظ شذرات من تاريخ الكسرة. سار خلف فيفيان بخطى متمهلة، وحين بلغ دكان الشيخ طلب منها أن تتريث قليلاً ليحادثه، لكنها لم تسمعه، ومضت إلى جمع من النسوة، اللائي لمحت بينهن اثنتين من أرامل البناية. كان الشيخ في تلك اللحظة منشغلاً في تلبية طلبات بضعة زبائن: خمسة رجال وامرأتين ترتديان الشادور. أحدهم يحمل حقيبةً صغيرةً ويتحدث معه بالعربية، والباقون يثرثرون مع بعضهم بالفارسية، ويتلفتون بين حين وآخر كأنهم يوجسون خيفةً. سلّم كمال على الشيخ وانتظر في الخارج حتى يفرغ من عمله.

كانت النسوة منهمكات في انتقاء ملابس داخلية نسائية، حمالات صدر وكورسيهات ومايوهات سباحة مستعملة، يعرضها أحد الباعة بأسعار مخفضة على منضدة أمام محله، فانضمت إليهن فيفيان وشاركتهن في البحث.

استفسر الشيخ من كمال، بعد انصراف الإيرانيين، عن الكتاب الذي كان ينوي تأليفه عن الكسرة، فأخبره كمال بأنه قطع شوطاً في كتابته ولم ينته منه بعد. لكنه في حقيقة الأمر لم يكن قد كتب حرفاً واحداً منه، وهو مشروع مؤجل لرواية، فاضطر إلى الكذب تلافياً للحرج، ثم لحق بفيفيان وواصلا سيرهما صوب دكاكين الخضار.

انشغل بال كمال، بعد أن تبضع ما يحتاج إليه من الطماطم والخيار والباذنجان، بمشروع الرواية، وشرع يفكّر: "أليس من الحماقة أن أشغل نفسي بكتابة مذكرات بدلاً من رواية أطلق فيها العنان لمخيلتي؟ حسناً، حتى لو أنجزتها فهل ثمة ناشر غبي يقامر بنشرها؟ لست سرفانتس ولا نجيب محفوظ ليرغب القرّاء في معرفة أسرار حياتي الشخصية؟ ها هي المكتبات تعج بمذكرات أناس مجهولين، لكنها أكثر من الهم على القلب. الأفضل أن أتوقف نهائياً عن كتابتها وأبدأ بمشروع الرواية...".

تعود خيوط ذلك المشروع إلى نحو نصف عام مضى، وتحديداً إلى اليوم الذي انبعثت فيه حكاية قديمة، وشاعت بين أهل الحي. تقول الحكاية إن حفيداً للوالي العثماني نجيب باشا جاء إلى بغداد في الذكرى المئوية لتولي جده الولاية عليها، وكان شاباً في مقتبل العمر، فاختار أحد بيوت الحي مسكناً له. وحين حدث فيضان دجلة الكبير، بعد ثلاثة عشر عاماً، هرع إلى المكان الذي جرفت فيه المياه جزءاً من السدة الترابية، واختفى هناك. أما سبب انبعاث تلك الحكاية فهو تأكيد عشرات الأشخاص من أهل الحي، نساءً ورجالاً وصبياناً، أنهم حلموا ليلة العاشر من كانون الثاني حلماً جماعياً كشف لهم أن ذلك الحفيد خرج من النهر بعد نصف قرن، بالسن نفسه الذي مات فيه، وعاد ليعيش بين ظهرانيهم في الحي باسم مستعار هو سلمان. هكذا، سلمان فقط من دون اسم للأب أو للعائلة. ولكن كيف لهم أن يعرفوا أي سلمان هو في الواقع، في حين أنهم لم يروا شكله، وثمة الكثير من الأشخاص الذين يحملون هذا الاسم في الكسرة، ناهيك عن أنها يقطنها، منذ عشرات السنين، خليط من الناس: عرب بغداديون، وعرب من الشمال والجنوب، وأكراد وتركمان ومسيحيون وصابئة. وقد أثار الحلم العجيب فضول كمال، أكثر من الحكاية القديمة، فتذكّر الحلم الجماعي لآلاف المهاجرين التشيكيين، بتنويعاتهم التي لا تحصى، في رواية "الجهل" لميلان كونديرا، وتساءل في دخيلته: "كيف يمكن لتجربة حميمة كالحلم أن تُعاش جماعياً؟ ما هي إذن روحها المنفردة؟". ودفعه ذلك الفضول إلى تقصي ماضي الحي، وسر استحضار حلم أهله لحفيد الوالي نجيب باشا من دون غيره. ومَن أفضل من الشيخ مثقال ليروي له ذلك الماضي؟ ذهب إليه ذات يوم ودوّن على لسانه ما أسعفته به ذاكرته:

"كانت الكسرة تسمى منطقة نجيب باشا، وتزهو بمجموعة من البساتين الوارفة، التي يسقيها نهير يتغذى من دجلة عن طريق قنطرة تحت السدة الترابية التي تمنع الفيضان عن بغداد. ويمر من الوزيرية وينتهي إلى قناة الجيش، فقررت العائلة المالكة في أواسط عشرينيات القرن الماضي بناء البلاط الملكي بمحاذاة هذا النهير من جهة، ودجلة من الجهة الأخرى.

عند اكتمال البلاط وانتقال الملك إليه، بدأ بناء بيوت الكسرة، حيث خصصت أراض صغيرة على مقربة من البلاط، لا تتجاوز مساحة القطعة الواحدة أكثر من مئة متر مربع، إلى حراسه وخدمه، وسميت حينها بمنطقة "العبيد"، أما الآن فتعرف بمنطقة "الحارة". وكانت تلك البيوت

الصغيرة تتكاثر بقدر حاجة البلاط إلى الخدم والحراس. وكان هؤلاء يعتمدون في شربهم وغسيلهم على النهير، الذي اندرس في أواخر العقد السادس من القرن الماضي.

بقيت هذه المنطقة تسمى بمنطقة نجيب باشا إلى عام ١٩٤٥، عام حدوث الفيضان الكبير، الذي أغلق بغداد بسبب انكسار السدة الترابية. كانت تحمي المدينة من غضب دجلة. وصادف أن حدث الانكسار مقابل هذه المنطقة فسميت من يومها بالكسرة.

وأتذكّر عندما دهمتنا مياه الفيضان، وأخذت تجرف بيوتنا هرعنا إلى ملعب الكشافة، وارتقينا مدرجاته وجعلناها مأوى لنا. وبعد انحسار المياه شرعنا في ترميم ما تبقى".

عاد كمال وجارته من السوق، يحمل كل منهما كيساً بلاستيكياً منتفخاً، قالت فيفيان وهي تنوي توديعه عند باب شقته:

– كنت أفكر طوال الطريق في كلامك. لم يبقَ في العمر متسع للهجرة.

– فيفيان، سنتزوج أنا وأنت في يوم واحد.

بدت عليها سيماء الدهشة:

– أنت تتزوج؟ صديقتك عاشت معك سنوات ولم تتزوجها.

– ألا تصدقين؟ اسأليها.

– أسأل من؟

– المرأة التي سأتزوجها.

– وكيف لي أن أعرفها؟

– تعرفينها جيداً، إنها تسكن في بنايتنا.

– مستحيل، راهبة؟

وضع كمال كيسه على الأرض:

– لا، لا، أية راهبة يا فيفيان؟

ثم أشار بإبهامه إلى الطابق الأعلى:

– فوق، فوق.

– لا تقل لي ألماس!

– ألا تستحق أن أضحي بعزوبيتي من أجلها؟

– تستحق وأكثر، لكن متى بدأت علاقتك بها؟

– منذ بضعة أيام.

تراجعت فيفيان إلى الخلف قليلاً، وانتزعت الحجاب من رأسها ودسته في الكيس، وقالت باستغراب:

– بهذه السرعة قررت الزواج منها؟ عهدي بك أنك رجل غير عجول..

– إلاّ مع هذه المخلوقة... أسّرتني في أول لقاء.

– يبدو أنه كان لقاءً ساحراً.

– لكِ أن تتخيّليه.

تناهى إليهما صوت انفجار من مدى غير بعيد، فاكفهّر وجه فيفيان فجأةً، وقالت:

– لم يعد بوسعي أن أتخيّل أشياءَ جميلةً مع هذه الأصوات والرعب الذي عشته. أظنه لن يمّحي من ذاكرتي أبداً.

شعر كمال بشروع عضوه في الانتصاب، فلم يجد وسيلةً لإخفائه عن ناظري فيفيان إلاّ برفع كيسه البلاستيكي من الأرض، وأمسكه بكلتا يديه أسفل بطنه، كمن يحمل ثقلاً، وقال:

– فيفيان لا تكوني سوداويةً إلى هذه الدرجة، البلد كله في محنة، وستزول حتماً. أنا عشت رعباً أفظع مما عشتِه أنت. كدت أموت أكثر من مرة.

– أعرف، لكنك لم تفقد ما فقدته أنا.

– هوّني عليك، ستتزوجين بنيامين ويعوضك عما فقدته.

– هيهات، لا أحد يعوض عن أحد.

– هذه ليست قاعدةً، أنا مثلاً عوضتني ألماس عن نسرين.

– الأمر مختلف، نسرين تركتك بإرادتها، أما زوجي فقد اغتالوه.

– المسيح أيضاً اغتالوه، أليس هذا ما تؤمنون به؟

– لكن الله لم يعوضنا.

– هذه مسألة فيها جدل.

– عيني كمال، الجدل أن نظل واقفين نتحدث هنا، دعني أحشو ثلاجتي وفي المساء تعال عندي أنت وألماس لنشرب نخب زواجكما.

– ستفرح ألماس كثيراً.

– ليباركما الرب.

دخل كمال إلى شقته واتجه بسرعة إلى النافذة، من دون أن يغلق الباب وراءه. أزاح الستارة على الفور، فرأى بقايا دخان رمادي ينتشر في الشارع كأنه ضباب خفيف. فتح إحدى فلقتي النافذة فلفحته رائحة خشب محترق، وفجأةً وقعت عيناه على مشهد غريب، كانت نخلة الواشنطونيا مقتلعةً من الجذر ومتناثرةً على الأرض، وسعفاتها محترقة تماماً. ورغم السعادة التي انتابته، فإن شيئاً ما أثار استغرابه وامتعاضه، لقد لمح على مقربة من النخلة أربعة أشخاص لم يتمكن من تمييز وجوههم عن بعد، لكنه شعر بوجود شبه بينهم وبين الإيرانيين الذين صادفهم في دكان الشيخ مثقال. كانوا يلبسون الزي الموحد لجامعي القمامة، وعلى ظهورهم كتابة فارسية.

بعد دقائق فتحت ألماس الباب ودلفت حاملةً قِدراً صغيراً، بوغت كمال في البداية، لكن ابتسامةً مشرقةً في وجهها بددت الأمر. قبّلها، وقال:

– خفق قلبي حين دخلتِ على نحو مباغت، ما هذا القِدر؟

– أكْلتك المفضلة.. دولمة (ملفوف).

– ألم يلمحك أحد؟

– بلى، الرجل الملتحي الذي يسكن في الطابق الرابع.

– هل رآك وأنت تدخلين؟

– فوجئت به يهبط الدرج بسرعة، وحين مرّ من جانبي التفت إليّ وخزرني بنظرة مريبة.

– رجل حقير. خرج من السجن بعد الاحتلال، والآن يعمل علاّساً)*(مزدوجاً للميليشيات والأميركان..

– من قال لك ذلك؟

)*(شاعت في العراق بعد الاحتلال مجموعة من الألفاظ منها لفظة "العلاّسة"، وتعني الوشاية بشخص ما إلى جهة مسلحة بهدف تصفيته.

– راهبة. تقول إن زوجته هربت منه قبل أشهر. تصغره بثلاثين عاماً. شابة جميلة تزوجها رغماً عنها. أبوها منحها له عوضاً عن مال استدانه منه وعجز عن تسديده. وكان النذل يقفل عليها الباب كلما خرج، لكنها رغم ذلك فرّت مع شاب كانت تحبه.

– ومن أين لراهبة كل هذه المعلومات؟

– ألا تعرفينها؟ لا يُعصى عليها شيء.

– كان يجب أن تحدثني عنه من قبل. بدأت الآن أخاف منه، وعلينا أن نتزوج في أسرع وقت.

– هل هذه أول مرة يراك فيها؟

– لا، حاول مرةً أن يكلمني على السلم فتجاهلته. كان ذلك قبل أن تبدأ علاقتي بك، ثم رآني يوم أمس في دكان راهبة فخزرني بعينيه الثعلبيتين، لكني لم أكترث له.

– احترسي منه إذن.

– ما رأيك في أن نخبر راهبة بأننا مخطوبان؟

– لماذا؟

– لأنها ستتكفل بإشاعة الخبر في البناية خلال ساعات.. وعندها سنلقم هذا الحقير حجراً.

– لا لا، ليس الآن. انتظري، سنخبرها يوم الزواج.

صمتت ألماس برهةً، فأراد كمال أن يغير الموضوع، سألها:

– هل رأيت ماذا حدث للنخلة؟

– رأيتها، إلى الجحيم.

– سيأتي الأميركان حتماً بعد قليل.

– لن تمضي الليلة من دون أن يغرسوا مكانها واحدةً أخرى.

– يبدو لي أن أمراً غامضاً يلف تفجيرها. تعالي انظري.

أطلّ إلى الشارع فلم يجد أثراً للرجال الذين لمحهم في المرة الأولى، قال:

– أين اختفوا؟ كان عددهم أربعة، يلبسون زياً موحداً لجامعي القمامة. رأيتهم قبل مجيئك يقفون هناك على مقربة من النخلة، وقد شبهتهم بإيرانيين صادفتهم في السوق.

– هؤلاء ليس لهم يد في تفجيرها.

– ما أدراك؟

– رأيت شخصاً ملثّماً ألقى عليها القنبلة وفرّ بدراجته النارية. كنتُ لحظَتَها واقفةً عند النافذة.

– كل شيء جائز.

١٢

في بداية شهر تموز حدث ما يشبه القيامة في بغداد.. أصابت تفجيرات رهيبة قلب المدينة وأطرافها.. تفجيرات ذات دافع انتقامي أعمى. سالت دماء كثيرة من أجساد غضة ويافعة ومنهكة... أجساد من كل الشرائح والطوائف: في الأسواق والشوارع والمساجد والحسينيات والأحياء المكتظة بالسكان. وفي اليوم التالي ظهرت ردة الفعل، هستيريا طائفية لا تقل عماءً: مداهمة منازل، قطع رقاب، حفلات شوي أجساد حية، تهديدات وتحذيرات...

كان جهاد البشير واحداً ممن تلقى تهديداً بالقتل إن لم يترك منزله، فاتصل بكمال قبل غروب الشمس، وقال له بصوت يشوبه الرعب:

– لم يعد لي ملجأ غيرك.. وجدت ورقةً ملصقةً على الباب تنذرني بترك بيتي.

فرد عليه كمال بسرعة:

– تعال فوراً.

لكن جهاد جاء متأخراً نحو ساعتين، حاملاً حقيبة سفر حشر فيها بعض الملابس والأوراق وكومبيوتر محمول. كان الوصول يومها من حي الأمين إلى شارع المغرب مغامرةً خطيرةً. بالكاد وجد سيارة تاكسي وافق صاحبها على قطع المسافة بخمسة عشر ألف دينار.

عندما بلغ البناية اندفع الرجل الملتحي من الباب بقوة، كما لو أنه يطارد لصاً، فاصطدم به وأفلت حقيبته من يده. لم يعتذر لجهاد عما بدر منه، بل أشار له ببرود أن يرفع الحقيبة عن الأرض، وظل واقفاً أمامه، مشدود الكتفين مثل من يتأهب للدخول في شجار، إلاّ أن جهاد أخفى امتعاضه وحمل حقيبته ودلف إلى البناية. بعد لحظة تبعه الرجل واستوقفه على السلّم:

– لحظة.. لم أرك من قبل، هل تسكن هنا؟

خامر جهاد شعور بالقلق، فرد بصوت ضعيف مضطرب:

– صديقي يسكن هنا، سأقيم معه بضعة أيام.

– هل أنت عراقي؟

تردد جهاد برهةً ثم قال:

– عربي مولود هنا.

– أردني أم فلسطيني؟

– وما الفرق؟

– أنا وكيل صاحب البناية ويجب أن أعرف.

– ماذا لو كنتُ فلسطينياً؟

– قلت لك أريد أن أعرف فقط.

– حسناً أنا فلسطيني.

هزّ الرجل رأسه ومضى خارجاً. عند الباب تناول هاتفه المحمول من جيب دشداشته وأخذ يكلم شخصاً ما.

قال كمال لجهاد لحظة دخوله إلى الشقة، في محاولة منه للتخفيف من ضغط مشاعر الخوف والحزن عليه:

– هذا بيتك. سنتقاسم كل شيء فيه عدا صديقتي.

ابتسم جهاد رغماً عنه وقال:

– أعرف أني سأثقل عليك، لكني لن أطيل البقاء.

– لماذا؟

– المكان هنا أيضاً ليس آمناً.

– أين ستذهب؟

– أرض الله واسعة.

– كان هذا في ما مضى، أما اليوم فهي أضيق من خرم إبرة. هل تريد أن تنضَمَّ إلى أحد مخيمات التنف أو طريبيل؟

– هناك ستكون حياتي آمنة في الأقل إلى أن يأتي الفرج.

– من أين يأتي الفرج؟

– قد ترأف بنا إحدى دول أفريقيا، أو أميركا اللاتينية.

– اصبر يا صديقي.. هذا احتقان طارئ وسينتهي.

– كيف ينتهي؟ ألم تسمع تصريح وزيرة المهجَّرين...؟

– هي أصلاً من أسرة فَيليّة كانت مهجّرة إلى إيران. ماذا قالت؟

– طالبت الحكومة بطردنا إلى غزة.

– كلام غبي. لو كانت تفهم ذرةً في السياسة لما صرّحت بذلك.

– حين استوزروها قالت سأسعى إلى وضع استراتيجية كفيلة لمواجهة ظاهرة الترحيل القسري، والآن تطالب بطردنا.

– تلك كانت مغازلة للحكومة والآن تغازل الميليشيات.

– وما ذنبنا كي ندفع ثمن هذه المغازلة؟

– دعها تغازل من تشاء.

سمع كمال صوتاً غريباً ينادي من الخارج، فأسرع إلى النافذة وفتحها، رأى ثلاثة جنود مارينز قرب نخلة الواشنطونيا الجديدة يمسكون بذراعي شاب يلف رأسه بشماغ أحمر، ويوجهون له ضربات بأحذيتهم. أغلق النافذة وعاد إلى مكانه، وواصل قائلاً:

– شيء مضحك.. الأميركان لم يحتلوا البلد كي يعيدوكم إلى فلسطين.

– لكن كلامها دعوة مبطنة لتصفيتنا حتى لو لم نُطرد رسمياً.

– لقد أسميتها بنفسك شاتيلا بغداد. اشكر ربك لأنهم اكتفوا بإنذارك.

– والحل؟

– تبقى معي إلى أن أتزوج وأترك لك الشقة.

– أين ستقيم أنت وزوجتك؟

أشار كمال بسبابته إلى السقف:

– في شقتها. إنها أوسع وأجمل من هذه.

– لا أعرف، أنا محتار.

– دعك من الحيرة.

رانت فترة صمت بينهما.. نهض كمال خلالها واتجه إلى المكتبة، كما لو أنه تذكّر شيئاً، سحب من أحد رفوفها ورقةً مطويةً، وقال:

– هل تذكر جلدران؟

– صديقة المرحوم سلام.. ما بها؟

– رحلت إلى تركيا مع أمها قبل سنتين.. ولولاها لما عرفت مصير أهل سلام.

– كيف؟

– لم تعلم بمقتله.. بعثت له رسالةً الكترونيةً بعد دفنه بشهر، ففتحها أخوه الأصغر وقرأها. وجد معها أيضاً رسالةً مرفقةً كتبتها لي، فنسخها وراح يبحث عني حتى حصل على عنواني من أحد أصدقائنا في مقهى الجماهير، وجاء بها إليّ.

– وهل زرت أهله؟

تنهد كمال:

– كدت أُقتَل قبل أن أصل إليهم.. وجدتهم يسكنون في صف بائس داخل مدرسة مقصوفة بحي الشعب، وكانت معهم أُسَر أخرى مهجّرة من مناطق مختلفة من بغداد..

– الطامة الكبرى أن كل هذا يحدث بينما يتبادل السياسيون الاتهامات، أحدهم يقول للآخر جماعتكم هم الذين يمارسون التهجير والتطهير، بدلاً من إيقاف الكارثة.

– إنها أجندات لها أول وليس لها آخر...

– ماذا كتبت لك جلدران؟

– تقول إن أمها تريد تزويجها من الأناضولي طمعاً في ثروته.

– اللعنة! ألم تكن له علاقة بماريدا نفسها؟

– رجل حقير، يستبدل الأم بابنتها ببساطة كما يستبدل بضاعةً بأخرى...

– عالم غريب...

– ليس بوسعنا تحمّله إلاّ بالكتابة والخمرة، هل ما زلتَ تشرب العرق؟

– أحصل عليه بصعوبة، وأنت؟

– عندي في البناية من يزودني به باستمرار، انتظرني.

صعد كمال إلى شقة فيفيان، وعاد حاملاً زجاجةً ملفوفةً بإحكام داخل كيس. دخل إلى المطبخ، وأعدّ على وجه السرعة صحوناً قليلةً من المازّات الباردة: الخيار، الحمص المسلوق، واللبن، ووضعها على الطاولة. صبّ كأسين وسأل جهاد:

– ماذا تكتب الآن؟

– ستفاجأ إن قلت لك إنني أكتب روايةً.

– ملعون، لقد سبقتني. ما موضوعها؟

– موضوع غريب جداً. حلمت بتفاصيله قبل شهر وباشرت بكتابته في اليوم التالي.

– عجيب! كل هذه المآسي التي تحيط بنا وتستقي موضوعاً لرواية من حلم رأيته؟

– لا أدري، شدتني إليه دوافع كثيرة. إنه يبدأ بليلة جنسية بين فلسطيني وتسيبي ليفني.

قدّم كمال كأساً لجهاد، وقال ضاحكاً:

– تسيبي ليفني ما غيرها؟ فانتازيا.

– ليس الآن، بل عندما كانت في فرنسا أيام عز شبابها. لم تكن ليفني تعرف أنه فرنسي من أصل فلسطيني، تعرّف إليها على أساس أنه من أصل فنزويلي. يومها كانت مدعوةً إلى حفلة في أحد الفنادق الباريسية الراقية، وقد ثملت كثيراً، فاستغل صاحبنا، الذي هو أنا في الحلم وشخصية أخرى في الرواية، الموقف ودعاها إلى الرقص.

– هكذا من دون مقدّمات؟

– تريد مقدّمات حتى في الحلم؟

– عندك حق، وبعد؟

– حينما انتهت الحفلة عرض عليها أن يوصلها لأنها لن تستطيع قيادة سيارتها.

– طبعاً كانت سكرانة فل.

– شربت كثيراً من الفودكا، وكان الطقس مثلجاً.

– ألم تمانع؟

– أبداً، وفي الطريق غلبها النعاس واستسلمت للنوم، فقرر أن يأخذها إلى شقته في إحدى الضواحي بحجة أنه لا يعرف عنوانها.

– عذر ذكي.

– وهناك نام معها. كان مأخوذاً بجمالها رغم كراهيته الشديدة لها.

– لماذا لا تقول إنه أراد بركوبها الشفاء لا شعورياً من جرح الاحتلال؟ كيف كانت ردة فعلها حين استيقظت من النوم؟

– شكرته على اهتمامه بها، ووعدته بأن تلتقيه ثانيةً.

صمت كمال برهةً، ثم ملأ ملعقةً كبيرةً باللبن ودسّها في فمه، وعلّق ساخراً:

– تبدو طيبةً في الأحلام! ظننتها ستتهمه بالاغتصاب.

– كانت ستفضح نفسها لو فعلت ذلك.

– ألم تطلب منه إن يوصلها إلى سيارتها؟

– الحلم انتهى عند هذا الحد، لكن في الرواية تتشعب الأحداث، ويسترجع الراوي حياة ليفني مذ كانت صبيةً.

– رجعنا إلى الواقع!

ارتشف رشفةً من كأسه، وأضاف مازحاً:

– انتبه، قد ترفع عليك دعوى قضائية إن شوّهت سمعتها وهي في هذا العمر.

– تصطفل.. أريد كأساً ثانيةً.

– أنت تشرب بسرعة.. متى ذقته آخر مرة؟

– قبل شهرين، جلبت لي إحداهن عرقاً سورياً. كانت جميلةً، ومطلقةً في الثلاثين من عمرها.

– أجمل من ليفني؟

– تقريباً، لكنّ ليفني كانت طازجةً.

– من يسمعك يقول إنك ضاجعتها بالفعل!

– الحلم أخو الواقع.

جرع كمال ما تبقى في كأسه، وقال:

– ما علينا، قلتَ إنك ستسرد حياتها مذ كانت صبيةً.

– قلت الراوي وليس أنا.

– حسناً، الراوي.

– سيسترجع انضمامها إلى حركة "بيتار" اليمينية، ومشاركتها في المظاهرات ضد اتفاقية فك الاشتباك، ويدخِل في الأحداث صديقة طفولتها ميرا غال، وزوجها نفتالي شبيتسِر.

– زوج صديقتها؟

– لا، زوج ليفني نفسها. وكذلك والديها إيتان وسارة ودورهما في منظمة الأراغون. وسأخصص فصلاً من الرواية لمشاركتها في دس السمّ للعالم النووي المصري يحيى المشد في فندق الميريديان بباريس.

– سيكون فصلاً بوليسياً! هل شاركت بالفعل؟

– طبعاً.

قال كمال مازحاً مرةً أخرى:

– كان عليك أنت أيضاً أن تدسّ لها السمّ بعد مضاجعتها.

التهم جهاد ملعقة حمص مسلوق:

– كنت أطمع أن ألتقيها مرةً أخرى.

– كانوا سيتهمونك بالتطبيع لو أنك فعلتها.

– لا على الحالم حرج يا صديقي.

١٣

احتفلت راهبة في منتصف تموز بعيد رأس السنة المندائية "دهوا ربّا" (عيد الكرصة). أغلقت دكانها قبل حلول مساء يوم ا"لكنشي وزهلي" (النظافة والاجتماع)، ودخلت إلى شقتها لتمكث فيها، منقطعةً عن العالم طوال يوم كامل ونصف اليوم، وهو وقت صعود ملائكة النور إلى الإله الخالق، الذي انبعث من ذاته في ذلك اليوم، لتقديم التهنئة والولاء له، ما يعني أن الأرض ستبقى خاليةً من دونهم، حيث تستغرق رحلتهم اثنتي عشرة ساعة صعوداً، واثنتي عشرة ساعة نزولاً عند عودتهم، واثنتي عشرة ساعة يمكثون بقربه. وكانت راهبة قد بدأت قبل يومين من العيد بتنظيف شقتها وحاجاتها، بمساعدة غضبان وابنة خالها التي تسكن على مقربة منها في الكسرة، وأعدت طحين الرز العنبر، وجلب لها أحد أقربائها زوج طيور من سوق الغزل لطبخها في هذه المناسبة، وتمنت لو أنها تستطيع الذهاب إلى النهر كي تؤدي طقس الاصطباغ، كما يأمرها دينها، وتغسل أخطاءها وآثامها لئلا تصبح من حصة النار في الآخرة وتُضرب ستين ضربةً، لكن فقدان الأمن، ويقينها بأن التكفيريين لن يترددوا عن إغراقها في النهر إذا ما رأوها تمارس ذلك الطقس، منعاها من تحقيق تلك الأمنية، ولم تكن تنقصها القناعة بأن الرب سيغفر لها احتفالها بالعيد من دون اصطباغ.

كانت ألماس يومها ترغب، من باب الفضول، في دخول بيت راهبة، أول مرة، لمشاركتها في طقس العيد، لكن راهبة قالت لها بحسم إن شعائر دينها تفرض عليها الانقطاع عن الناس خلال العيد، ولا تريد استقبال أي شخص غير مندائي في بيتها. وفي الحقيقة أن ما جعلها ترفض استقبال ألماس ليس شعائر دينها فقط، بل غيرتها منها، فقد عرفت قبل العيد بأيام قليلة أنها هي المرأة التي يهواها كمال.

في البدء، حين أسقطت فيفيان السر في فمها عن طريق المصادفة، اغتاظت، وكادت تقتحم شقة ألماس لتحرضها على صرف النظر عنه، وتكشف لها عن العلاقة القديمة التي تربطها به، لكنها لمّا علمت بأنهما ينويان الزواج قريباً تراجعت، وأقنعت نفسها بـ "أن الحي الأزلي الذي خلق

كمال خلق أيضاً مئات الرجال أفضل منه". ورغم ذلك فقد أشاعت الخبر في البناية كلها، تكفلت بإيصاله إلى الأرامل، واحدةً بعد الأخرى، خلال بضع ساعات، وكأنها تنفض عن كاهلها ثقلاً.

لم تلتقِ راهبة بعد انتهاء العيد أياً منهما، كان كمال يتهيأ، قبل الظهر، للسفر إلى شهربان، وألماس راقدةً على سريرها، يغلبها النعاس، إثرَ سهرة وداعية امتدت حتى الفجر. لكن كمال عدل عن السفر، بطلب من أمه هذه المرة، رغم أنها كانت تتحرّق شوقاً لرؤيته. قالت له، محذّرةً إياه، بصوت واهن:

– لا تأتي ابني، الوضع عندنا سيء جداً.. لا أحد يستطيع الخروج إلى الشوارع. الحكومة تأكل وتشرب بحماية الأميركان وكلاب الميليشيات هنا تسيطر على معظم الأحياء.

ثم تغير صوتها بغتةً، وخنقتها العبرة:

– تقتل وتنهب وتحرق وتهجّر الناس من بيوتهم.. حتى أن...

لم تستطع إكمال حديثها، أجهشت بالبكاء، وانتابتها نوبة سعال حاد، وحين هدأت سألها كمال بقلق:

– لماذا تبكين؟ ماذا حدث؟

أكملت:

– البستان..

– ما به؟

– احترق نصفه.

– مستحيل!

– حدث الحريق في الليل.

– أي ابن كلب فعل ذلك؟

– لا أحد يعرف. يقول أبوك إن الفاعلين أحرقوا جذوع أكثر من مئة نخلة، وبالذات قلوبها. الله ينتقم منهم، اختاروا الأنواع "الزينة" من النخيل: المكتوم وجمال الدين والبربن والقيطاز.

قال كمال منفعلاً قبل أن تقفل أمه الخط:

– والله لم يفعلها غيرهم... أبي يعرفهم جيداً. قولي له ذلك. لقد فعلوها سابقاً.

في اليوم التالي قرأ كمال خبراً في صحيفة محلية بعنوان "حرائق مجهولة تأتي على آلاف أشجار النخيل"، يقول: "تعرضت عشرات بساتين النخيل في مدينتي بدرة وشهربان، المحاذيتين لإيران، إلى حرائق دمرت آلاف أشجار النخيل فيها، في ظاهرة يقول أصحاب البساتين إنها تتكرر منذ ما يزيد على الشهر، وتحدُث في الليل دائماً، ويكون الحرق للأصناف النادرة. وقد ذكر صاحب أحد البساتين لمراسل الصحيفة أن حوادث إحراق البساتين التي تُعدّ الأشد فتكاً بالنخيل ما زالت تُسجَّل ضد مجهول!".

١٤

بعد مضي ثلاثة أسابيع قرر جهاد البحث عن مكان آخر يأويه. كان الرجل الملتحي لا ينفك طوال الوقت عن مراقبته كلما دخل إلى البناية أو خرج منها، وفي إحدى المرات تتبعه عن بعد وهو يدخل إلى الصيدلية، وحين أشعره بأنه ليس غافلاً عنه تظاهر بشراء علبة دخان من دكان راهبة. لكن جهاد أخفى الأمر عن كمال لئلا يسبب له مشكلةً.

ذات يوم، وبينما كان كمال ذاهباً لتوديع زهراب هاكوبيان وزوجته، قبل رحيلهما إلى أرمينيا بساعات، حزم جهاد أمره، وكتب له ورقةً ووضعها على الطاولة، ثم ارتدى ملابسه على عجل، وحمل حقيبته وغادر الشقة.

عاد كمال ذلك اليوم منقبض النفس، مقطب الوجه، ففوجئ بغياب جهاد عن البيت واختلج قلبه. كان الوقت بعد غروب الشمس بقليل، ورقعة السماء قد فقدت لمعانها، وكستها صفرة مكفهرة استعداداً لبزوغ حبات مضيئة متناثرة في مداراتها، وليس ثمة نور في البناية إلاّ النور الكئيب المنبعث من الفوانيس الزيتية. خمّن بدايةً أن جهاد ربما يكون ذهب لشراء حاجة ما من أحد المحلات القريبة، لكنه تذكّر أنه كان يحرص على إبلاغه كلما أراد الخروج من الشقة. خطا عدة خطوات صوب النافذة، أخرج رأسه منها وراح يجيل نظراته في ما حول الشارع بعينين مترددتين، فأبصر تاج النخلة الجديدة مقطوعاً، يتدلى على جذعها مثل رأس ثور مذبوح، وتنسدل على جنباته أوراق سعفاتها المروحية، التي بدت في ظلمة المساء الخفيفة بلون القرميد المحترق. ابتسم وأخرج هاتفه المحمول من جيبه واتصل بجهاد، لكنه وجد هاتفه مغلقاً. حاول مرةً ثانيةً وثالثةً فلم يفلح. ساوره شعور بالقلق ودارت في خاطره الهواجس. أشاح عن النافذة فوقعت عيناه على الورقة، تناولها بسرعة وهرع إلى المطبخ. أشعل فانوساً وابتدأ يقرأ:

أخي العزيز كمال

تحية وداع حارة

لقد أيقنت تماماً أن القوة تصنع الحق كما يقول شكسبير. "كل الأمكنة هنا تنطوي اليوم على غدر متخفٍ تباغتنا به في لحظة عشوائية لترسلنا إلى الموت على غفلة من تدابيرنا وتوقعاتنا".

اعذرني.. لقد اخترت مخيمات الحدود، فربما تتاح لي هناك فرصة للحياة في مكان آخر ليس فيه ميليشيات قذرة، ولا فرق موت متوحشة، ولا علاّسين سفلة.

جهاد البشير

تموز ٢٠٠٦

لم يستطع كمال قضاء تلك الليلة وحيداً، أحزنته رسالة جهاد فأمضى الساعات الأولى منها متكدّراً، وزادت نفسه انقباضاً مكالمة هاتفية محبطة تلقاها من زهراء، قالت فيها إنها تعتذر عن فشلها في تحقيق المفاجأة التي وعدته بها، وكشفت له أنها كانت قد أقنعت والدها بنقل خدماته إلى السفارة، لكن الوزارة رفضت الطلب.

ظل شيء ما يدور في رأس كمال.. ذكّره رحيل جهاد المفاجئ بموت سلام الياسري، فجالت الدموع في عينيه، ودهمه إحساس غامض بأن حياته على وشك التبدل، فمذ عاش معه سلام في مدريد قبل ستة عشر عاماً لم يشاركه السكن في بيت واحد صديق حميم. طلب من ألماس بعد كأسين ثقيلتين أن تأتي لتخفف من كربه، تكلم معها بجرس خافت فاقد القوة، لكنها جاءت إليه عقب نصف ساعة، هبطت الدرج بسرعة بالغة، ينتابها شعور بالخشية من انبثاق الرجل الملتحي فجأةً أمامها أو من خلفها.

كان من عادة جهاد، حين يسكر، أن يغني بصوت رخيم مجروح، مازجاً بين الغناء الفلسطيني والعراقي: الميجنا والأبوذية وظريف الطول والعتابة والبستة، على عكس معظم النساء اللواتي عرفهن كمال، فقد كنّ يطلبن منه دائماً أن يغني كي يرقصن له، وهو لا يجيد الغناء، فيضطر، في أغلب الأحيان، إلى الاستعانة بأغانٍ مسجلة لمطربين أو مطربات حتى لا يضيّع متعته. استرجع سهرة الليلة الأخيرة مع جهاد، فقادته ذاكرته إلى الاستنتاج بأنه تعمّد حتماً أن يغني فيها تلك الأغاني التي تعبّر عن الفراق واللوعة: "حرقت الروح لمَن فارقتهم .. بكيت ومن دموعي غرّقتهم"، و"يا ميجانا يا ميجانا يا ميجانا .. ألله معاهم وين ما راحوا أحبابنا"، و"ياظريف الطول وين رايح تروح .. وجرحت قلبي وغمّقت الجروح"..

حين ضغطت ألماس على جرس الباب كان كمال مستسلماً لإغفاءة على الأريكة، يعذبه كابوس تكرر معه أكثر من مرة في الأيام الأخيرة: "كان معصوب العينين، موثقاً بحبل سميك إلى جذع نخلة الواشنطونيا، تلامس كتفه كتف ألماس، وقد أحاط بهما حشد من المارينز، المدججين ببنادق "أل أم ١٦"، وهم يضعون نظاراتٍ شمسيةً على عيونهم، ويرتدون قفازاتٍ وحافظاتٍ جلديةً بين أوراكهم وأفخاذهم.. وعلى مبعدة عنهم تغلق بضع عجلات عسكرية مصفحة من نوع "Humvees" شارع المغرب من جهتيه. رفع ضابط أصلع ضخم الجثة يده، فانسحب الجنود المحيطون بكمال وألماس، وبعد لحظات وجّه اثنان منهم رشقاتِ رصاصٍ متتاليةً صوب النخلة".

استفاق كمال بغتةً من نومه على رنين الجرس وهرع إلى الباب، فتحه فلم يرَ أثراً لأحد. بعد هنيهة سمع دويّ سلسلة انفجارات قوية في الخارج. أراد أن يصرخ منادياً باسم ألماس، لكنه عجز عن فتح فمه، تسارع خفقان قلبه، وشعر بشيء غريب، أول مرة، أسفل بطنه، لم يحدث له ربما من عشرين سنة. تسللت يده إلى عضوه فألفاه ساكناً لا يريم مثل وزغة ميتة. تمسك بحلزون السلالم، وهبط إلى الأسفل، مخترقاً العتمة ببطء وحذر شديدين، كمن يسير في حقل ألغام، وحين لامست قدماه بلاط الطابق الأرضي امتدت من الفراغ كفّان ضخمتان، وأمسكتاه بقوة من معصميه وسحبتاه إلى باب البناية، حاول أن يقاومهما فلم يقوَ على إفلات يديه. كان أحد مصراعي الباب مغلقاً والثاني مفتوحاً، لكن الظلمة المطبقة في الشارع لا تسمح بنفاذ أي شعاع من الضوء إلى الداخل. لوت الكفّان ذراعيه خلف ظهره ودفعتاه إلى الخارج.

على الرصيف سطع أمامه فجأةً ضوءٌ فسفوريٌ أصفر أغشى عينيه، فأيقن بأنه الضوء نفسه الذي انبعث من مصباح الرجل الملتحي قبل شهرين. التفت بسرعة إلى يمينه وإلى يساره فإذا بالكفّين اللتين تمسكان به هما لكائنين يفوقانه طولاً، يرتديان بزتين مرقطتين شبيهتين بجلد أفعى...

عمّان– كركوك

٢٠٠٨– ٢٠٠٩

شهادات حول الرواية

* يمكن لقارئ "نخلة الواشنطونيا" أن يتلقّى نداء متنها الحكائي عبر منظورات مختلفة؛ فهي إحدى الأعمال الروائية العراقية التي تصدَّت لمسألة الأقليات العرقية والدينية والثقافية في مجتمع الرواية كما تم تمثيله إبداعياً؛ الأقليات التي مسَّها حيف العُنف الدَّموي، والتمييز الطائفي، والتهجير الجغرافي في أثناء الحرب الضروس وما بعدها من سنين، الحرب التي عصفت بمجتمع الرواية الذي نهل فضاءاته من تجربة المجتمع العراقي الذي كان الأنموذج الواقعي للأنموذج المتخيَّل في المتن الحكائي لـ "نخلة الواشنطونيا".

د. رسول محمد رسول

مجلة الرافد الإماراتية

العدد ١٨٦ فبراير ٢٠١٣

* في هذه الرواية، رؤية بانورامية للمشهد العراقي بعد الغزو والاحتلال، مع إشارات متناثرة إلى الحصار وما قبل، كما تلامس الرواية أيضا آثار الاحتلال على العراقيين، بصرف النظر عن طوائفهم ومذاهبهم وأعراقهم.

ونجد الكاتب يتعمد استحضار شخصيات من أعراق وطوائف ومذاهب عدة، ليكشف لنا أن آثار الغزو ونتائجه طالت الجميع.. السني والشيعي والسرياني والآشوري والمندائي والعربي والكردي والتركماني والعراقي والفلسطيني.

يوسف ضمرة

كاتب وقاص من الأردن

الجزيرة نت ٢٠١١/١٢/٢٥

* لنخلة الواشنطونيا في الرواية قيمة رمزية دلالية في غاية الاهمية تشير الى الاحتلال الامريكي للعراق، وتتبدى في الوصف المتغير للنخلة على لسان الشخصيات أو الراوي، بما يعكس حالة الشخصيات النفسية في حواراتها ومذكراتها وكوابيسها وتطورات الاحداث على أرض الواقع. تمر نخلة الواشنطونيا بتحولات في نظر الآخرين مثلما تمر الشخصيات ذاتها بتحولات تحت وطأة أزمات الحرب المأساوية، وتتحول النخلة في الرواية من رمز للقوة والاستعلاء الى رمز بشع غريب في تعبير رمزي عن التحول في النظرة الى الاحتلال الامريكي في العراق: من الاحساس بالضعف أمام صدمة القوة الى الاصرار على المواجهة وانطلاق المقاومة.

أياد نصّار

الملحق الثقافي لجريدة الدستور الأردنية: ٦/١١/ ٢٠٠٩

صدر للمؤلف

١- المألوف واللامألوف في المسرح العراقي، دار الشؤون الثقافية، بغداد ١٩٨٨.

٢- معرفة الآخر: مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة (بالاشتراك مع آخرين)، المركز الثقافي العربي، بيروت- الدار البيضاء، ط ١ ١٩٩٠، ط ٢ ١٩٩٢.

٣- شفرات الجسد: جدلية الحضور والغياب في المسرح: دار أزمنة، عمّان ١٩٩٦.

٤- غواية المتخيّل المسرحي، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٧.

٥- عبد الوهاب البياتي: المعراج الأرضي- دراسة ومختارات (بالاشتراك مع محمد تركي النصار): دار العلم للملايين، بيروت ١٩٩٨.

٦- عبد الوهاب البياتي: نهر المجرة- دراسة ومختارات (بالاشتراك مع محمد تركي النصار): هيئة قصور الثقافة، القاهرة ١٩٩٨.

٧- دراسات في الرواية العربية (بالاشتراك مع آخرين): المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٩٨.

٨- المعرفة والعقاب: قراءات في الخطاب المسرحي العربي: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ٢٠٠١.

٩- التجنيس وبلاغة الصورة (بالاشتراك مع آخرين)، دار ورد للنشر والتوزيع، عمّان ٢٠٠٧.

١٠- حليب المارينز (رواية)، دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمّان، ط ١ ٢٠٠٨، ط ٢ ٢٠١٠.

١١- الحضور المرئي: المسرح من التحريم إلى ما بعد الحداثة، دار المدى، دمشق ٢٠٠٨.

١٢- المسرح واستراتيجية التلقي: دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة ٢٠٠٨.

١٣- نخلة الواشنطونيا (رواية)، ط١، دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمّان ٢٠٠٩.

١٤- المماثلة والاحتمال: قراءات في تجارب مسرحية أردنية، وزارة الثقافة الأردنية، عمّان ٢٠١١.

١٥- المرآة والتخييل: مقاربات في المسرح العربي، دار نينوى للنشر، دمشق ,٢٠١٣

١٦- حماقة ماركيز (رواية)، ط ١، دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمّان ٢٠١٤.

كلمة الغلاف

تُعد هذه الرواية إحدى النصوص الإبداعية التي تعبّر عن التحولات النفسية والجسدية والمصيرية التي طالت الفاعلين في متنها الحكائي جرّاء ما تعرَضت له من عنف شامل. كما أنها الرواية التي لامست جملة الانهيارات الوجودية التي تتعرَض لها الذات الإنسانية في مرحلة الحروب الجهويَة والتغيرات السياسية الجذرية؛ الانهيارات التي تُخرج الذوات البشرية من معتاد حياتها صوب متغيرات الضياع والألم والموت المجاني والهروب من الحياة إلى المجهول.

د. رسول محمد رسول